

التَّقِيْبُ عَنْ الْمَاضِي

تأليف استيلا فريدمان
ترجمة أحمد محمد عيسى
تقديم سامي الكيال



التنقيب عن الماضى
أو
الكشف عن الحضارات القديمة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

نشر هذا الكتاب بالاشتراك

مع

مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر

القاهرة - نيويورك

نوفمبر سنة ١٩٦٠



اثنيله فرديمان

التنقيب عن الماضي

أو

الكشف عن الحضارات القديمة

ترجمة

أحمد محمد عيسى

تقديم

يسرى الكتيلى

مكتبة الطبع والنشر
مكتبة النهضة المصرية
لأصحابها حسن محمد وأولاده
٩ شارع محمد باشا بالقاهرة

هذه الترجمة مرخص بها ، وقد قامت مؤسسة فرانكلين
للطباعة والنشر بشراء حق الترجمة من صاحب هذا الحق :

*This is an authorized translation of "DIGGING
INTO YESTERDAY" by Estelle Friedman.*

*© 1958 by Estelle Friedman. Published by G. P.
Putnam's Sons, New York.*

المشركون في هذا الكتاب

المؤلفة :

استيلاه فريدمان : تخرجت في قسم الفلسفة بجامعة
فاندربلت . وبعد أن انتهت من دراستها ، اجتلبها اهتمامها
الشديد بعلم الآثار إلى دراسة كل ما استطاعت يداها
أن تصل إليه عن الموضوع . وهي تقول إنها تأمل أن
يستثير كتابها في نفوس الأطفال اهتماماً مماثلاً بالآثار
ودراستها .

وإلى جانب التأليف ، تشرف السيدة استيلاه
فريدمان على برامج التخطيط الخاصة بإحدى مؤسسات
الرأى العام في ناشفيل ، بولاية تينيسى ، حيث تقيم مع
زوجها وابنتيهما .

المترجم :

الأستاذ أحمد محمد غيسى : أمين المكتبة العامة
لجامعة القاهرة . الحاصل على ليسانس الآداب ، قسم التاريخ

(و)

من كلية الآداب ، بجامعة القاهرة سنة ١٩٤٠ ، وعلى
دبلوم فى الآثار الإسلامية من معهد الآثار بجامعة القاهرة
سنة ١٩٤٣ . أوفد من قبل الجامعة لدراسة شئون
المكتبات الجامعية بإنجلترا سنة ١٩٤٩ ، قام بأعمال
علمية بمتحف الحضارة ومعهد المخطوطات بجامعة الدول
العربية ، كما اشترك فى الأعمال العلمية التى قامت بها
جامعة الاسكندرية ، بالاشتراك مع المؤسسة الأمريكية
لدراسة الإنسان فى دير سانت كاترين . ترجم كتب :
« الفنون الإسلامية » و « رصيد البنك الكبير » و « القوى
البحرية والتجارية فى حوض البحر الأبيض المتوسط » ،
وكلها كتب نشرتها هذه المؤسسة . يتولى سكرتيرية
مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، وهو عضو
بمجلس إدارتها .

صاحب المقدمه :

الأستاذ سامى الكيالى : الأديب العربى المعروف
بفكراته التجديدية ، وآرائه الحرة . عضو المجلس الأعلى
لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية . صاحب

(ز)

مجلة « الحديث » . آخر مؤلفاته : « الأدب العربي المعاصر في سوريا » و « يوميات عربي في أمريكا » و « أمين الريحاني » و « ولي الدين يكن » و « سيف الدولة وعصر الحمدانيين » . وهو عضو في جمعية العاديات بحلب ، والجمعية التاريخية المصرية .

مصمم الغلاف :

محبي الدين أبو ذكرى : خريج كلية الفنون التطبيقية ، حاصل على دبلوم المعهد العالي للتربية : مدرس بالمدارس الثانوية . صمم أكثر من غلاف لكتب المؤسسة .

محتويات الكتاب

صفحة

مقدمة بقلم الأستاذ سامي الكيال	١
الفصل الأول : الأدلة المطمورة	٩
الفصل الثاني : عرائس إله المطر	٢١
الفصل الثالث : وادي الملوك	٤١
الفصل الرابع : وحش أقصر اللايرنت	٦٣
الفصل الخامس : الكتاب المقدس ومعاول التنقيب	٨٩
الفصل السادس : لغز القلعة	١٢٩
الفصل السابع : المدينة الذهبية	١٦١
الفصل الثامن : المعول ما يزال يضرب الأرض	١٩١

المقدمة

ما قصة هذا الإنسان الذى عاش مع فجر التاريخ ؟

كيف كانت حياته قبل آلاف السنين ؟

ما عاداته وتقاليده ؟

ما طقوسه ومعتقداته ؟

هل كان ينعم ببلهنية العيش ورغد الحياة أو كان يصارع

البؤس والشقاء ؟

هل عرف ألوان الترف التى ننعم بمباهجها اليوم ؟

ما مدى صلته بعالم المعرفة ؟

هل كانت له خصائص حضارة ؟

لقد ظل علماء التاريخ يتخبطون فى رواية سير الأمم

المنقرضة التى طواها التاريخ . : رواية أخبارها وقصصها

وحكاياتها وأساطيرها . . منها ما يقترب من ظلال الحقيقة

والواقع ، ومنها ما تقوم مادته على الخلدس والتخمين ،

وما زالوا إلى أن بدأ « علم الآثار » يفرض وجوده ويشق

بطن الأرض بمحاوله وفؤوسه ، يريد الحقيقة عارية من كل لبس . . الحقيقة التي تطمئن نزعات العالم الذي يركض وراءها مهما تكلف في سبيلها من جهد وكد ، ومهما بذل من مال ، ومهما سكب على حساب عافيته من عرق ودموع .

عاش « الأثريون » عمرهم مع الماضي ، مع تاريخه وقصصه ، مع علومه وآدابه ، مع فلسفته وأساطيره ، حتى إذا أنسوا في بقعة من بقاع العالم بصيص أمل من حضارة أمة ما تزال آثارها مدفونة تحت التراب ، شدوا إليها الرحال ، أكانت تلك البقاع صحراوات محترقة ، أم قمم جبال وعرة ، فما يكادون يحيطون رحالهم بعد سير طويل وعناء شديد حتى تبدأ حفرياتهم :

أى عمل شاق ؟

قد يطول معهم الحفر والتنقيب ، وقد تطويعهم الأيام بعد سنوات طوال دون أن يصلوا إلى بارقة أمل أو بصيص من نور :

ولا تخلو الساحة من أمناء للفكرة ، ، والركوض وراء
هذا الأمل المدفون في التراب .

وسرعان ما يتقدم إلى نفس العمل الشاق أحد تلامذتهم
الأوفياء ، أو أحد زملائهم الأصفياء .

وما هي إلا سنوات قد تقصر أو تطول حتى ينكشف
الغطاء عن السر الخبأ ، فيعثروا على حجرة ، أو عمود ،
أو آثار هيكل ، أو ناووس ، أو قبر ، أو نقوش كتابية ،
أو قطعة حلى ، أو لباس . أو بقايا عظام ، أو غير ذلك
مما يرمز بوضوح إلى حياة شعب عاش سنوات طويلة في
تلك البقعة من الأرض دون أن نعرف عن واقع حياته
أى شىء ملموس .

هنا يتبدد الكثير من الآراء التي سردها المؤرخون الذين
يعاودون كتابة فصول التاريخ من جديد على ضوء ما كشف
عنه علماء الآثار الذين يطلعوننا على حياة شعوب عاشت
قبل آلاف السنين ، وكان لها أثرها في مجرى التاريخ .

فقد دلتنا الحفريات التي قام بها الأثريون منذ بداية
القرن الثامن عشر إلى منتصف القرن العشرين على جوانب

فريدة من جنود حضارات كانت مطمورة ، لولا مغامرات
الأفذاذ منهم ، والجهود التي بذلوها ، والأموال التي
نثروها ، والضحايا التي قدموها ، لظلت مخبوءة تحت
التراب ، ولظلت بحوث المؤرخين هي الحدس والتخمين ،
ولا شيء إلا الحدس والتخبط والتخمين :

ولا أريد في تقديمي لهذا الكتاب أن أتحدث عن
الجهود القذة التي قام بها علماء الآثار وما أدوه من خدمات
جلّى لتاريخ البشرية ؛ فهذا ما لا تفوت معرفته كل
مثقف . وقد أشارت إليه السيدة استيله فريدمان مؤلفة
هذا الكتاب التي اجتذبتها هذا العلم إلى رحابه بعد أن
كانت مشدودة إلى رحاب الفلسفة في بداية حياتها الجامعية .

ومن يدري ! فربما كانت دراستها لفلسفة الإغريق
وتأملها هياكل آلهة الإغريق التي تنبض بالحس والحياة
والجمال - ربما كانت تلك الدراسة هي التي قادتها إلى علم
الآثار ، فدرسته بشوق وشغف ، حتى إذا امتلأت نفسها
من تلك الروائع - مما قصه عليها علماء الآثار من سير
الحضارات المطمورة - أحبت هي أيضاً أن تطرف القراء

بهذا الفيض من غمار المعرفة ، فكان لنا كتابها الذى نحن بصددده .

وهو كتاب قيم يروى قصص حضارات معروفة وحضارات مجهولة ؛ حضارات أمم عريقة ، وخصائص أمم بدائية تعيش مع الحرافات والأوثان .

ففى سردها ما بذله الأثريون من الحفريات عن حضارة الإغريق والرومان وقدماء المصريين وأور الكلدانيين أعطتنا جوانب جديدة ، لا عن مباهج تلك الحضارات التى كانت مغمورة تحت الركام فحسب ، بل عن جهد الإنسان التواق إلى المعرفة ، عن صراع العلماء ومعاناتهم المتاعب والأهوال فى سبيل الكشف عن الحقيقة .

فإنك تقرأ فصول هذا الكتاب وكأنك تقرأ قصة .

أى قصة ؟

قصة المغامرين فى سبيل المعرفة . . وهى من الروعة والإثارة لذهن القارئ بمكان عظيم .

فمن قصة « عرائس إله المطر » - قصص هنود المايا

في جواتيالا وجنوب المكسيك الذين كانوا يقدمون الضحايا من العرائس لكبير آلهتهم الذي يصورونه جسم ثعبان وریش طائر وأسنان نمر ، إلى قصة « وادی الملوك » إلى قصة وحش اللايرنت - أريد أسطورة المنظورس الذي يتغذى من لحوم البشر . الوحش الخرافي الذي قالوا إن نصفه إنسان ونصفه ثور ، والذي كان يعيش في جزيرة كريت --- لقد قادت هذه الأسطورة عالم الآثار للكشف عن حضارة ماكانت تخطر على بال إنسان .

إلى قصة الطوفان في التوراة والتي كانت الانطلاقة الأولى لعلماء الآثار أن يكشفوا عن حضارة أور الكلدانيين وحضارة السومريين التي ثبت للعلماء أن حضارتنا ما هي إلا استمرار لحضارة شعب سومر القديم .

إلى قصة كنز القلعة - أريد الحفريات التي جرت في بلاد ييرو فوق جبال الأنديز الشاهقة الارتفاع والتي كشفت عن حضارة شعب الانكا الذي كان يملك قدراً كبيراً من الذهب لا يمكن تصوره . - حسبنا القول إن صحاف موائلهم وكوؤوسهم صنعت من هذا المعدن النفيس الذي عرف عند

الهنود باسم « دموع الشمس الباكية » . تلك الإمبراطورة التي شدهت الأثرين حين رأوا جدران قصورهم وبيوتهم تصنع من كتل حجرية ضخمة تزيد الحجرة الواحدة أحياناً على أربعة عشر طناً .

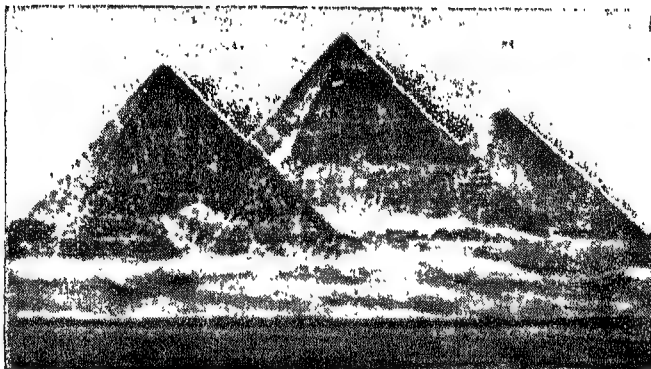
لقد استطاعت المؤلفة أن تروى قصة هذه الحفريات — أريد الكشف عن الحضارات القديمة بكثير من الدقة — دقة العالم الأمين على حقائق التاريخ في أسلوب شائق يشعر القارئ أنه يقرأ قصة مبهوكة الفصول ذات حوادث مثيرة تنقلك دائماً إلى عالم مجهول ، سرعان ما تتبدد غوامضه بآفاق مشرقة الجوانب :

ولا أبالغ حين أقول إنني قرأت هذا الكتاب — وقلما تستهويني كتب الأثرين — قرأته بكثير من المتعة واللذة ، ولا أحب أن أسترسل في الحديث عنه أكثر من هذا ، فحسبي الإلماع لأترك للقارئ الاستمتاع بما استمتعت به ، وأن يعيش في تلك الآفاق المثيرة التي عاشتها المؤلفة — وهي آفاق ، إلى ما يكتنفها من أتربة وغبار وحفريات وجهد وتعب وعرق ودموع ، سرعان ما تتكشف عن مظاهر

حياة مترفة تفيض بالجمال والإشراق وشتى ألوان الفنون :
ولا يسعى في ختام هذه المقدمة إلا أن أشيد بالجهد الذي
بذله الأستاذ أحمد محمد عيسى في نقله هذا الكتاب إلى العربية ،
فأضفى عليه بدقة ترجمته وحسن صياغته ما جعله من الكتب
التي تحتل مكانتها بين كتب الأثریات القيمة .
وما أحوج المكتبة العربية إلى ترجمة ما يكتبه المنصفون
من علماء الغرب عن حضارات الشرق وكنوزه .

سامى السكياتى

القاهرة : نولبر سنة ١٩٦٠



(شكل ١)

الفصل الأول

الأدلة المطمورة

منذ أكثر من سبعة آلاف سنة ، نقشت إحدى القبائل
الإفريقية جدولا للضرب على عظمة تيتل .

وخلال العصر الحجري ، كانت توجد أربعة مصانع
لعمل الفؤوس الحجرية ، في إقليم هو ما نسميه الآن
« إنجلترا » .

ومنذ خمسة آلاف سنة ، استخدمت النساء في مصر
من أدوات التجميل ما تستخدمه اليوم كواكب هوليوود .
ومن أربعة آلاف سنة ، كان الكريتيون يلعبون لعبة
تشبه « السيجة » ، وكانت عندهم حفلات للألعاب
الرياضية ومقاهٍ يتناولون فيها الوجبات الخفيفة .
ولعب الإغريق الهوكي منذ ألفين وخمسمائة سنة .
وتجنب الرومان في بومبي مشاكل الغسل والكبي
يلبس شملات من نسيج لا يتكسر .

كل هؤلاء الناس : من الإفريقيين في عتصر ما قبل
التاريخ ، إلى الرومان ، عاشوا بعيدا عنا ، سواء في
المكان والزمان . ومع ذلك فإن ما نعرفه عنهم قد
حدث فعلا .

ولكن كيف يمكننا أن نعلم بأحداث الحياة اليومية
عند هؤلاء الناس الذين عاشوا في تلك الأزمان البعيدة ؟
ثم من أين لنا بالمعلومات الغزيرة عن ماضي الجنس
البشري ؟

هنا يدخل علم عجيب هو علم الآثار ، الذى يعنى بالدراسة العلمية لبقايا الحضارات القديمة .

وعالم الآثار ، يشبه كثيرا المحقق ، الذى يأتى إلى مكان الجريمة بعد وقوعها . وعليه أن يأخذ ما يجده من الأدلة أيا كانت ليحل المشكلة التى أمامه . فإذا كانت الجريمة سرقة ، فعلى المحقق أن يبحث عن بصمات الأصابع ليتأكد من شخصية السارق . وإذا لم يجد بصمات أصابع ، فقد يجد آثار أقدام يعرف منها شيئا عن جسم المجرم . وقد يساعده عثوره على قطعة من « قماش » أو شعرة صغيرة ، على معرفة الكثير من مظهر السارق وهندامه . وقد توجد آثار عجلات فيعينه هذا على اقتفاء أثر العربة التى استخدمت في السرقة .

غير أن عالم الآثار لا يحاول كشف الجرائم ، وإنما يحاول تجميع أجزاء « قصة الإنسانية » بعضها إلى جانب بعض . وقد توجد البراهين التى يبحث عنها فى عدد من الأوانى ، أو النقوش ، أو المحاريث ، أو رءوس السهام ،

أو الخرز ، أو المبنى ، أو غيرها . ودربته على هذه الأشياء كدربة المحقق في اقتفاء أثر الجريمة ، ولهذا فإن الأثرى يفيد كثيراً من العلم إذا ظفرت يده بهذه الأدلة البسيطة .

وكتب التاريخ التي تكتب عن أمريكا لا تتعمق في الماضي إلا عدداً ضئيلاً من مئات السنين ، في حين تشتمل كتب أجزاء أخرى من العالم ، تواريخ تصل إلى ألف سنة أو آلاف السنين ، رغم أن الناس عاشوا على هذه الأرض منذ مئات الألوف من السنين . وعلم الآثار يحاول أن يعرف كل ما يمكن معرفته عن حياة أقدم الناس حضارة في جميع أنحاء العالم . فيبحث عن الفن عند هؤلاء الناس ، وعن منازلهم ، ومبانيهم ، وأدواتهم ، وأسلحتهم ، ودياناتهم ، وألعابهم ، وحكوماتهم ، ولغاتهم ، وفي محاولة معرفة كل هذه الأشياء لإكمال للنقص في معلوماتنا عن الحياة في الماضي البعيد .

ونتيجة لبحوث علماء الآثار سيكون في مقدورنا يوماً ما أن نقرأ في كتب التاريخ كل ما يتعلق بالأقدمين

فى كثير من اليسر ، كما نفعل الآن فى قراءة كل ما يتعلق بتاريخنا المعاصر .

والحقق وهو يؤدى وظيفته ، يستعين بهؤلاء الذين يعملون بعيدا عن مسرح الجريمة من أمثال رجال البوليس ، فيمكنه أن يسأل هؤلاء عن تحديد نوع البندقية التى انطلقت منها الرصاصة ، كما يمكنه أن يسأل عن أوجه الشبه والاختلاف بين عبارتين من الخط المكتوب ، أو أن يختبر فى إدارة البوليس قطعة من النسيج أو الورق أو الخلفات ، اختبارا ميكروسكوبيا .

كذلك عالم الآثار ، يستعين بالمعمل أو بالعلماء الذين قاموا ببحوث خاصة على النباتات أو الحيوانات أو غيرها من الأشياء . فقد يبحث مساعدوه عن حقيقة عظمة حيوان لم يعد له وجود ، أو يؤرخون له قطعة دقيقة من الفخار . وقد يطلب إليهم قراءة كتابة أو نقش بلغة غريبة . ولا يتعرض لدراسة هذه الخلفات أو هذه الأدلة سوى الأشخاص الذين يستطيعون القيام بهذا العمل على خير وجه .

وقد يبدو أحياناً أن عمل عالم الآثار أسهل من عمل المحقق ؛ إذ لم يخطر على بال الكريتيين أو المصريين القدماء مثلاً ، أنهم إنما يتركون لبعض الناس براهين ليكتشفوها بعدهم بآلاف السنين . ولو أن ذلك خطر ببالهم لما اقتصروا له . أما مرتكب الجريمة فإنه يحاول دائماً وبطبيعة الحال ألا يترك أى دليل بعده - ويحاول جاهداً أن يضل البوليس بكل ما يستطيع من أساليب التعمية .

ويتمتع محقق الجريمة بميزة لا يتمتع بها عالم الآثار ، ذلك أن المحقق يقصد في التواللحظة إلى مسرح الجريمة وقت وقوعها ، بينما يأتي عالم الآثار إلى مسرح الحضارة القديمة بعد اندثار أصحابها بآلاف السنين .

وغالباً ما يجد المحقق معظم أدلته في البقعة التي حدثت بها الجريمة . أما عالم الآثار فإنه يحتاج دائماً للتنقيب عن أدلته . إنه لا يستطيع أن يسير في بحثه بدون معول أو جاروف ، لأن معظم الأشياء التي يبحث عنها دفينة تحت سطح الأرض منذ قرون .

وترجع أسباب ذلك إلى أن كثيراً من القدماء قد دفنوا

معهم في قبورهم معظم كنوزهم . والقبور بطبيعة الحال موجودة تحت سطح الأرض . ثم إن هنالك مدنا طمرت بأكملها تحت الأرض ، وعندئذ يتحتم على عالم الآثار أن يقوم بعمليات حفر على مستوى عميق للكشف عنها .

ومن الحقائق الطريفة أن الناس اختاروا البناء في الموضع الواحد أكثر من مرة . فقد كان من العسير أن يخلى الموقع من الانقراض المتداعية لما يتكلفه ذلك من المال والجهد الكثيرين . وكل ما كان يحدث هو أن تمهد الأرض بحيث تصلح لإقامة البناء الجديد . على هذا فإن الأساس المدفون في الأرض ربما بقي هكذا دون أن تمسه يد أى من علماء الآثار لسنين طويلة في المستقبل .

ولما كانت الحضارات القديمة لا تعنى — عنايتنا اليوم — بشئون النظافة والصحة العامة ، فإن بقاء الفضلات وتراكم الانقراض التي تتجمع ، ترفع هي الأخرى من مستوى سطح الأرض . وهذا الذى يحدث بين وقت وآخر ينتهى أيضاً بأن تظمر مدن بأكملها .

وتساعد الطبيعة دائماً على عملية الطمر هذه ، ففي

قلب لندن ، بانجلترا ، ظهرت ، منذ عدة سنوات ، بقايا
معسكر روماني ؛ ولكن لم يمض عام على ذلك حتى اختفت
هذه البقايا تماما تحت شجيرات الأزهار البرية المتزاحمة . وفي
البلاد الحارة ينمو النبات بطبيعة الحال أسرع بكثير مما ينمو
بانجلترا ؛ فالأطلال بوسط وجنوب أمريكا غطتها كلية
غابات الكروم المتشابكة والأشجار الضخمة . وامتداد
جذورها القوية بين الأحجار أبعدت جدراننا بأسرها عن
أماكنها . وبعد سنوات عديدة من نمو هذه الأشجار يتحول
كل ما يمكن رؤيته من المدن القديمة إلى رواب أو تلال
تغطيها الأتربة والنباتات .

وفي الشرق الأوسط ترتفع هذه الروابي أو التلال إلى
مائة قدم فوق مستوى السهل ، وتشبه هذه التلال طبقات
كعكة ضخمة يغطي سطحها الأتربة والنباتات المختلفة ؛
وتكون الطبقة العليا في هذا التل هي المباني أو المنازل التي
بنيت أخيراً ، شأن طبقات الكعكة ؛ فإن أعلاها آخرها
تكويننا . وتعتبر كل طبقة تالية أقدم من حيث الزمن ، وتكون
أسفل الطبقات هي تلك التي بناها أول من بنى في هذه

البقعة . وقد تحتوى شريحة واحدة ، من هذه الكعكة على ثمانى أو تسع طبقات .

من هذا يتضح لنا أن عمل عالم الآثار شاق جداً . وقد يستخدم الأثرى رجالاً عديدين فى عملية الحفر ، إلا أنه بمجرد ظهور دليل ما ، فإنه يتولى هو الإشراف بنفسه ؛ فقد يكون هذا الدليل هاشأً جداً ، وقد يكون مكسوراً إلى مئات القطع . وعندئذ فواجبه اتخاذ احتياطات كبيرة لمنع ما عساه أن يصيب ما تبقى من الدليل المكتشف . ومن الراجح أن يستمر الحفر بعد ذلك بوساطة سكين صغيرة . وقد ترفع القاذورات عن شىء رقيق باحتراس بوساطة فرشاة من شعر الجمل ، وربما يحتاج رفعها إلى نفخة رقيقة فقط . ويجب أن يجتهد فى المحافظة على كل قطعة من هذه الدلائل . فتعمل لها صور ، وتكتب عنها ملاحظات ، وتدون مقاييسها . كل هذا يجب أن يحدث قبل أن تمس أو تحرك من مكانها الأصلى .

ونرى هنا أنه يتحتم على عالم الآثار — مثل محقق الجريمة تماماً — أن يضع أمامه كل البراهين ونتائج المعمل

معاً . وبدراسة الأشياء المكتشفة مع الصور والملاحظات والمقاييس ، يمكنه أن يعطى العالم صورة عن عدد من الناس الذين عاشوا في الماضي المجهول ؛ وتكون الجهود هي ثمرة مهارته العلمية وعمله الشاق .

ومن الغريب أننا قد نجد أحياناً أن الأثرى والمحقق قد يظفران بدليل هام جداً من أشياء ربما لا تمتّ للعلم بصلة . فمثلاً يستمع المحقق بعناية كبيرة إلى عدد ضخم من شهود الجريمة ؛ الذين قد تكون أقوال بعضهم مجرد ترثرات تافهة ، ومع ذلك فليس يبعد أن يلتقط من هذه الترثرات خطأ واحداً من الحقيقة ؛ أو حقيقة بأكملها تنفعه كبرهان .

كذلك يستمع عالم الآثار إلى ثروة القرون الماضية والخرافات القديمة وأساطير الناس ، التي توارثها جيل عن جيل . ويحدث أن يكون الناس الذين روى هذه الأساطير قد غيروا فيها خلال السنين أو أضافوا إليها مرات ومرات . ومن الطريف أن يبقى جوهر الحقيقة في هذه الأساطير هو البرهان الذي يحتاجون إليه لإزاحة الستار عن كشف مثير .

والروايات التي تحكى عن هذه الاكتشافات المثيرة ، تكاد
تتألف رفوف مكتبة بتمامها . وهذا الكتاب الصغير الذى
بين يديك يستطيع أن يقفز بك من مكان لآخر حول العالم
وخلال عدد من القرون ، ليعطيك القليل من هذه القصص
العذبة المثيرة - قصص بعض الحضارات القديمة ، وكيف
أحييت من العدم ، وبعثت من المجهول على يد عالم الآثار
الذى أصر على البحث عن الحقائق المختبئة فى ثنايا الأساطير :

الفصل الثانى

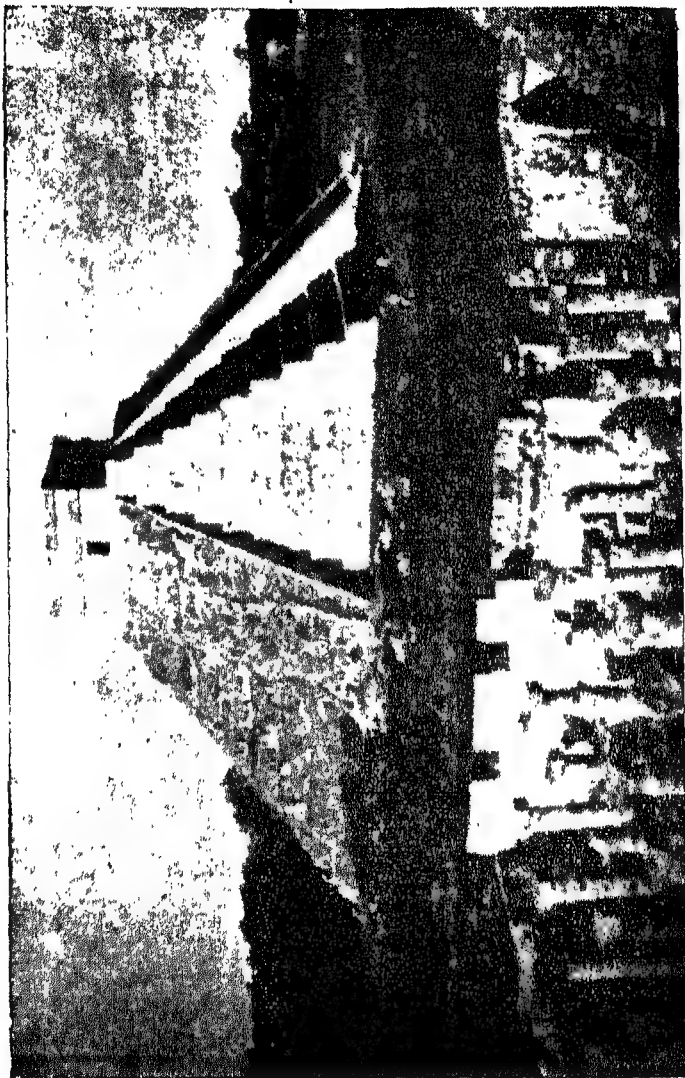
عرائس إله المطر

أيمكنك أن تتصور ما يمكن أن تكون عليه الحال ،
لو حدث فى يوم من الأيام ، ولسبب ما غامض ، أن
اختفى أهل مدينة بأسرها فجأة وإلى الأبد ؟ أيمكنك
أن تتصور أن مائة وخمسين ألف نسمة يهجرون منازلهم
وحقولهم ومدارسهم ومعابدهم وأعمالهم ، فى وقت واحد ،
ويذهبون إلى غابة بعيدة لبناء مدينة جديدة ؟ .
أفلا يبدو تصور هذا الأمر فى ذاته ، غريبا للغاية ؟
ربما لا يحدث مثل هذا على الإطلاق فى مدينة من مدننا ،
ولكنه حدث دون شك منذ عدة قرون فى بعض المدن
الكبيرة فى جواتيمالا وجنوب المكسيك .
إن المدن الكبيرة فى تلك الجهات بناها هنود المايا ،
غير أن الناس فجأة ، ولسبب غريب قطعاً ، حملوا جميع
متاعهم وانتقلوا شمالاً إلى الأدغال ، دون أن يعرف
أحد لذلك سبباً حتى اليوم .

قد يكون سبب ذلك مرض يخيف حملهم على ترك منازلهم المريحة ، وشوارعهم النظيفة ، ومبانيهم المألوفة : وقد يكون السبب اجتياح الجراد لمساكنهم ، أو تغير الجو أو فساد الزرع . ولكن كل هذه الأفكار ضروب من الخلدس والتخمين .

ظلت جماعات هنود المايا تنتقل سنوات كثيرة بين الأدغال ، إلى أن استقرت جماعة منهم في الشمال ، حيث الدولة الصغيرة المسماة يوكتان ؛ وبنوا هناك مدينة جميلة تدعى تشيشين إيتزا ، بعد ميلاد المسيح بعدة قرون . وظلت هذه الجماعة هناك ، حتى أغارت عليها بعض القبائل الأخرى عام ١٢٠٠ م فهربت من المدينة .

وشيئاً فشيئاً أخذت الكروم البرية المدارية تنمو فوق جدران تشيشين إيتزا ، وتطوف الببغاوات الملونة بمبانيها المهجورة ، وتعدو « النسائيس » صارخة في شوارعها الخالية : وبعد زمان غزا الإسبان يوكتان عام ١٥٤١ م ، حين لم يعد هناك من مدينة هنود المايا سوى خرائب يخيم عليها الصمت وسط الأدغال .



(شكل ٢) أعمدة معبد الحارثيين في تشيشين إلترا

وهذه المدينة الخربة لها قصة غريبة ، فلم يكن ليعرفها
العالم قط لولا رجلاان : أحدهما إسباني كتب القصة ،
والآخر أمريكي صدقها وآمن بها .

والإسباني هو أسقف يوكتان واسمه ديجو دى لاندا ،
أما وظيفته فهي أن يستأصل من نفوس هنود المايا العقائد
الدينية التي ورثوها عن أجدادهم منذ قرون .

كان كبير آلهة المايا هو كوكولكان : جسمه جسم
ثعبان ، وريشه ريش طائر ، وأسنانه أسنان نمر أمريكي .
ولهذا الإله تماثيل حجرية تصوره وبين فكيه
رأس آدمي .

ولم يجد الأسقف - وهو مسيحي متدين - غضاضة
في تخريب كل ما يتعلق بهذا الإله القاسي الثعبان الذي
يكسوه الريش ، فأمر بنهب كنوز معابد المايا وحرق
كتبهم المقدسة .

لكن بالرغم من نفور الأسقف من عقائد المايا الهمجية ،
فإنه لم يخف إعجابه بقصصهم الغريبة التي سمعها من أشياخهم



(شكل ٣) المكسيك . . مركز حضارى بين الأمريكتين

الذين بنى أجدادهم مدينة تشيشين إترا . والواقع أنه أعجب بها كثيراً للدرجة حملته على أن يكتبها جميعها .

وبقيت كتب هذا الأسقف حبيسة لإحدى المكتبات بإسبانيا ، لم يقرأها من بعده أحد مدة ثلاثمائة سنة . وحينما اكتشف الناس سرها آخر الأمر ، فانهم لم يصدقوا حكايات الآلهة الغريبة وما دار حولها من معارك وما أنشئ لها من معابد وكنوز . بل إن أحدا لم يعد يذكر أطلال المدينة القائمة وسط الأدغال ، ونسى الناس تماماً شعب المايا وحضارته .

لم يهتم علماء الآثار من الأمريكيين بتلك الحضارة . فقد شغلوا بالتنقيب عن حضارة الإغريق والرومان والمصريين القدماء . وانصرفوا عن التفكير في الأجناس التي عاشت في القارة الأمريكية قبل أن يبدأ تاريخها المكتوب .

غير أن شخصاً واحداً قرأ كتب الأسقف دى لاندا وصدقها . وهذا الشخص هو الصبي الأمريكي الصغير ادوارد . هـ : طومسون . قرأ طومسون قصص المايا

القدماء ، وصمم على أن يذهب يوماً ما ، حينما يكبر ، إلى
يوكتان ليرى بنفسه ما هناك ، وكان أهم ما يريد الوصول إليه
هو المدينة المقدسة عند المايا وهي تشيشين إيتزا .

وتشيشين إيتزا معناها « فوهة بئر إيتزا » . وسميت
كذلك نسبة إلى اسم الأسرة الحاكمة في إيتزا ، ولأنها
كانت تقع على مقربة من بعض الآبار الطبيعية ، التي كانت
اثنان منها على جانب كبير من العمق والاتساع . وإحدى هاتين
البئرين كانت كافية لتزويد سكان المدينة بجميع ما يحتاجون
إليه من الماء . أما البئر الثانية فستديرة هائلة ، عرفت
بالبئر المقدسة .

وقد حكى ديجو دى لاندنا قصة غريبة عن هذه البئر
المقدسة ، فقال : إن إله المطر عند المايا واسمه « يم
تشك » كان يعيش في قاعها . وكان من الضروري عندهم
أن يكسبوا رضاه ليرسل إليهم المطر الذي يروون به
قمحهم . فإذا حدث جذب ولم يسقط المطر لمدة طويلة ،
قال رجال الدين إن « يم تشك » غاضب . وهنا يتحتم على
الناس من كل أنحاء البلاد أن يأتوا بالهدايا لإله المطر ،

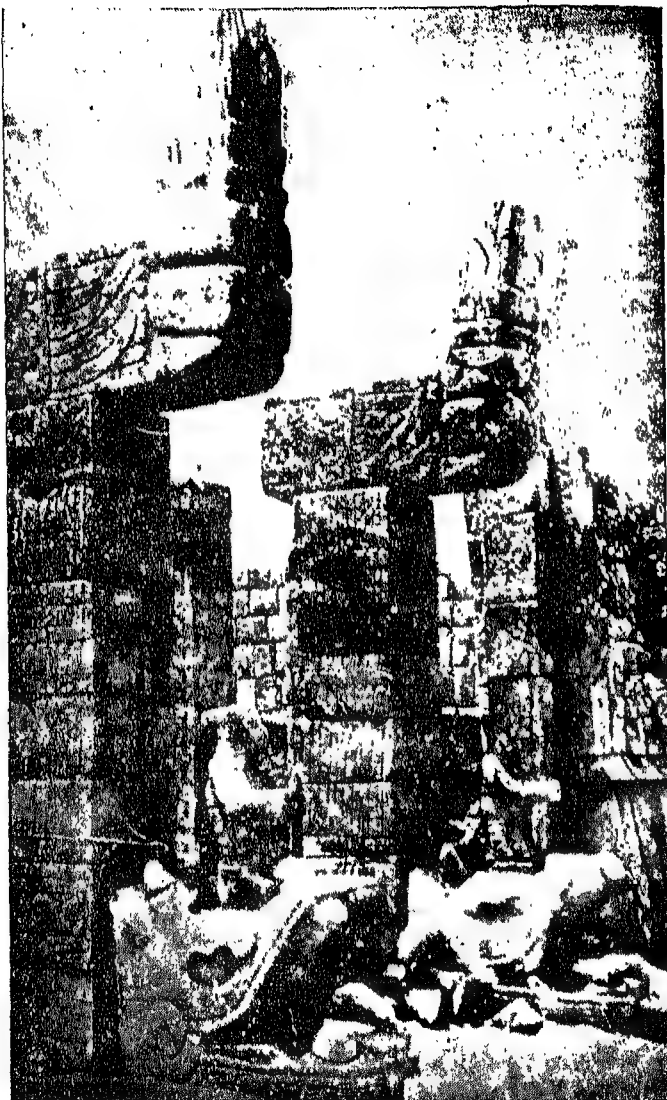
ويختاروا أجمل فتيات المملكة عروساً لهذا الإله القاسى .

ويقود رجال الدين الناس من المعبد ، عبر الطريق المقدسة ، إلى حافة البئر العميقة حيث يقذفون بالهدايا والقربان . وأخيراً ، وبين الأدعية وترانيم الصلوات ، يقذفون بالعروس الجميلة بعيداً ، فى وسط البئر .

وتسقط العذراء - وهى فى أرق ثيابها وأثقل حليها - إلى الأعماق البعيدة فى قاع البئر المقدسة لتستقر بين ذراعى « يمم تشك » . فإذا ما حاز القربان رضا الإله أرسل إلى رعاياه المطر ثانية حين يكونون فى أشد الحاجة إليه .

لم يصدق معظم الناس قصة دى لاندا عن العرائس الضحايا ؛ ولكن طومسون كان متأكداً أنها مبنية على حقائق . وصمم على أن يعثر على البئر المقدسة ويستخرج منها كنوزها البشعة . وهنا يستطيع أن يبرهن للعالم أن القصة القديمة التى رواها دى لاندا كانت قصة حقيقية .

وواتت طومسون الفرصة فى شبابه ، فقد كان فى الخامسة والعشرين حين عينه رئيس الولايات المتحدة أول قنصل لبلاده فى يوكتان . وهكذا وجد طومسون



(شكل ٤) جانب من معبد المكارين

نفسه أخيراً في البلد الذي قرأ عنه كثيراً وأحس أن في وسعه أن يبدأ البحث عن تشيشين إتزا .

و ذات يوم خرج طومسون ممتطياً ظهر جواد واتباع الإرشادات التي قالها دى لايندا في كتابه القديم . كانت الرحلة بطيئة إذ كان لا بد من قطع الفروع والكروم الكثيفة لفتح الطريق . وانقضى يوم طويل حار ، ثم بدأ الظلام يزحف وبدأت تزحف معه برودة الليل لتنعش الجوع ، و طومسون يركض متعباً ساعة بعد أخرى ، وهو يسأل نفسه بين الحين والحين : هل توجد حقاً مدينة عريقة بين هذه الأدغال الكثيفة ؟ ألا يحتمل أن يكون أمراء المايا إنما حكوا للقسيس خرافات ليس إلا .

وفجأة لمح وميضاً أبيض أمامه . وهناك ، وفي ضوء القمر الساحر في ليالي يوكتان ، رأى — كالشيخ — بناء ضخماً يعلو تلالاً شديدة الانحدار ، وأخذ البناء يكبر رويداً رويداً مع كل خطوة يخطوها حصانه المتعب المكدود . وأخيراً رأى طومسون لأول مرة هرم كوكولكان الكبير . ولم ينم الرجل الشاب من فرط سروره فأخذ يصعد

التل ، فوق سلم شديد الانحدار تغطيه الشجيرات ،
والأعشاب ، حتى وصل إلى باب المعبد الكبير الذى كان
يمثل عقيدة عفى عليها الزمن . وحينما نظر من مكانه
إلى أسفل التل رأى اثني عشر هرما أخرى تكسوها
الأثرية والحرائب ، كما رأى خلال الظلام نقوشاً جميلة
على الأحجار .

وارتعت ركبته قليلا ، وهو وحده فى ذلك السكون
الغارق فى ضوء القمر ، فربما كان الإله الثعبان ذو الريش
نائماً ، وقد يستيقظ فى أية لحظة . إن غضبه سيكون عظيماً
ولا شك ، لو أفاق فرأى ذلك الغريب الكافر به يتجراً
على معبده .

وفجأة وهو ينظر خلال الحرائب على المدينة القديمة
رأى طريقاً مستقيماً يوصل بين المعبد والبركة المظلمة
الواسعة . وفى لمح البصر عرف أنه ينظر إلى الطريق
المقدس ، وأن البركة المظلمة لابد أن تكون هى البئر
المقدسة الذى يعيش فى أعماقها . « يم تشك » إله المطر مع
عظام العرائس العذارى ..

كان على طومسون أن ينتظر انبلاج ضوء النهار
ليتعرف المكان .

آه . . ما أعجب المنظر الذى رآته عيناه عند إشراق
شمس الصباح ؛ إنها مبان ضخمة لا نوافذ لها ، ترتفع
عالية فوق عدد من الأهرامات التى صنعها يد الإنسان
وحده ، دون استعانة حتى بالحيوانات أو العربات : وثعابين
ضخمة من الحجر تتماوج ذيوها الطويلة من الأرض إلى قم
هذه الأهرامات ، ونقوش غريبة بديدة صنعها قوم
لم يستخدموا سوى الآلات الحجرية . وقطع ضخمة من
حجر البناء لا يقوى على رفع الواحدة منها أقل من اثني
عشر رجلا . وقد صفت هذه الأحجار فى مداميك صفاً
متقناً وبنيت بها القصور والمعابد . أما الرسوم الحائطية
الملونة فتمثل كهنة ، ومحاربين يلبسون ملابس غريبة .
وهكذا نرى أن طومسون كان على حق حينما اعتقد أن
القصص التى قالها أمراء المايا ورواها عنهم الأسقف
دى لاندا كانت حقائق ثابتة ، والدليل : أنه يرى الآن
أمام عينيه مدينة المايا المقدسة .

ولكن ماذا عن البئر ؟ أليست قصتها حقيقية كذلك . ؟
 إن طومسون شديد الشوق إلى معرفة هذه الحقيقة ، ولذا
 أخذ يسير في الطريق الممهدة المستقيمة . وهى الطريق
 المقدسة ، غير عابئ بضربات أفرع الأشجار ، ووجد أن
 الطريق تؤدى إلى معبد صغير مهتم ، ومنه إلى البئر ذاتها .
 والبئر المقدسة كبيرة ، دائرية الشكل ، تنحدر جدرانها
 الحجرية بشدة إلى القاع مسافة سبعين قدماً قبل أن تصل
 إلى سطح الماء الآسن . أما قطرها فيبلغ مائة وستين قدماً .
 نظر طومسون إلى سطح الماء الداكن المخيف في
 جوف هذه البحيرة الكبيرة البعيدة الغور ، وفكر في
 الوسائل التى يستطيع بها إماطة اللثام عن سرها الدفين .
 لقد شغل بها كثيراً أثناء النهار ، ولم تتركه فى أحلامه
 أثناء الليل .

قرر طومسون أن أسهل الطرق للوصول إلى غرضه
 هى استخدام كراكة ميكانيكية يطهر بها قاع البئر . ويرفع
 بها الصيد الخبيء .

أخذ طومسون يعمل يوماً بعد يوم مستعيناً في عمله ببعض الهنود ، وكانت الكراكة لا تخرج إلا الأوراق العطنة والطين والأحجار ، واستمر على ذلك أياماً ، وبدأ أن البئر كأنها أرادت الاحتفاظ بسرّها إلى الأبد .

وحينما بلغ اليأس آخر مراحلها من نفس طومسون ، بدأ الحظ يواتيه ، إذ أخرجت الكراكة كرتين لونهما سمى ، وفى حجم بيض النعام . وسر طومسون بذلك سروراً عظيماً .

وعلى الرغم من أن هاتين الكرتين لم تكن لهما أهمية كبيرة ، إلا أنهما كانتا دليلاً قوياً عند طومسون ، على أن الطقوس الدينية القديمة كانت تقام فى ذلك المكان . والكرتان مصنوعتان من مادة مطاطة تسمى كوبل كان يحرقها المايا أثناء القيام بطقوسهم الدينية : وهذه المادة تعطى رائحة زكية عند احتراقها . وهنا تأكد طومسون أن كرات الكوبل كانت تلقى فى البئر كقرابين للإله « يم تشك » .

لأنه على صواب إذن . ومنذ ذلك الوقت والكراكة تخرج فى كل لحظة صيداً جديداً ؛ كقطع النسيج والحبال

وبعض المزاريق الخشبية البدائية الصنع والتي تشبه تماماً ما رآه طومسون مصوراً في الرسوم الخائطية للمعارك القديمة . وهناك أشياء مصنوعة من المطاط من بينها عرائس لها أذرع وأرجل متحركة ، وقدور على هيئة رموس آدمية ، وأخرى على هيئة حيوانات وثمانسبح .

وفي يوم من الأيام أخرجت الكراكة جمجمة فتاة صغيرة ، ثم أخذت تخرج عظاماً كثيرة ، منها عظام أسرى محارين قذفوا بهم إلى البئر مع العرائس الصغيرة . ومما أثار الإشفاق أن الكراكة أخرجت ذات يوم نعلاً رقيقة لإحدى العرائس الصغيرات . وأخيراً ، أصبحت لدى طومسون أدلة على صحة القصص القديم الذي تضمن هذه التوضيحات القاسية :

استمر الحفر في البئر إلى أعماق أكثر وأكثر ، حتى وصل أخيراً إلى طبقة حجرية صلبة . وهنا أدرك طومسون أن الأيدي الآدمية فقط هي التي تستطيع إخراج ما يمكن في قاع البئر العميقة ، ومعنى هذا إنزال الخواصين إلى قاع البئر

الشديد البرودة ، مسافة ستين قدما حيث مقر الإله « يم تشك » الخيف .

لأنه عمل مرعب ، ولكن طومسون لم يهدأ حتى كشف الغطاء عن الأسرار المحيطة بالضحايا . وأخذ يعمل يوما بعد يوم في مياه البئر الكدرة ، ويخرج أشياء كثيرة جميلة من الذهب ، كالأقنعة وأقراص إله الشمس ، وثعابين ذات ريش ، وضفادع راقصة ، وقرود ، وسكاكين لذبح القرابين والضحايا ، ومئات الأجراس من الذهب والنحاس الأحمر ، بالإضافة إلى قطع منقوشة نقشا جميلا من حجر اليشم . وكانت هذه المادة أكثر قيمة عند المايا من الذهب . وربما أحفظ الإله « يم تشك » بمعظم كنوزه الذهبية ، ولكن الكثير الذى اكتشفه طومسون ، إلى جانب الرسوم الحائطية المنقوشة على جدران المباني القديمة ، يمكن أن يعطينا القصة كاملة .

كانت كل الأشياء التى استخرجها طومسون من البئر محطمة ، ويرجع ذلك إلى أن المايا كانوا يؤمنون بأن كل الأشياء لها روح وحياة ، وأنهم بتعطيمها أو قتلها يعتقون

أرواحها لتذهب مع أرواح ضحاياهم من العرائس والمحارين
إلى إله الموت .

والآن لنقلب صفحات الماضى لنرى طقوسهم .

إن القمح يذبل ويتصوح فى الحقول ، لأن إله المطر
الخفيف غاضب يريد القرابين . وعندئذ يخرج الناس مع
ضوء الفجر من المعبد العظيم ، لتبدأ التراتيل الجنائزية مع
دقات الطبول البطيئة .

ويأتى الكاهن الأكبر ذو الشعر الأسود الطويل المتدلى
على كتفيه من تحت قبعته الزرقاء ، والذى يزين كتفيه
وأذنيه ورسغيه ونعليه ، بقطع من حجر البشم الثمين .
وتخرج من قبعته ريشة طويلة تنقوس حتى تبلغ الأرض
ويحمل فى يده مبخرة يتصاعد منها دخان الكوبل .
ومن خلف هذا الكاهن الأكبر يأتى آخرون أصغر منه
من الكهنة والسحرة والمشعوذين ، يحملون فى أيديهم
ثعابين حية .

ويتبعهم ببطء النبلاء ، وقد لونت أجسامهم كلون

أجسام الثعابين ، وغطيت وجوههم بأقنعة غريبة ، ويسير
من خلف هؤلاء الخدم حاملين الذهب والجواهر واليشم
من جميع أنحاء البلاد .

وفي النهاية تأتي العروس الجميلة ، وتكون عادة أجمل
صبايا المملكة . وتحضر إلى المعبد شاحبة الوجه زائغة
البصر ، مستلقية على وسادة مطرزة يحملها الكهنة ، إلى
المستقبل المجهول .

ويدخل الكاهن الأكبر معبداً صغيراً ليصلي وليحرق
البخور المقدس ، ثم يكفّون عن الغناء وتسكت الطبول حين
يلقى به إلى البئر . ثم يلقى في إثر البخور المقدس بالهدايا
الكثيرة للإله الغاضب « يم تشك » .

ويعود بعد ذلك الغناء الحزين ودقات الطبول ، بطيئاً
بطيئاً أول الأمر ، ثم يرتفع الغناء وتسرع الدقات حينما
يرفع اثنان من الكهنة العروس الجميلة من فوق وسادتها ،
ويحملانها إلى حافة البئر ثم يورجحن الجسم النحيل
مع دق الطبول البطيئة ، ثم تشتد سرعتها ويعلو صوتها
تبرمجياً .

وفي لحظة ، يعطى الكاهن الأكبر الإشارة ، فيقف الغناء والطلل ، ويقذفون بالعروس الصغيرة بعيداً إلى وسط البئر ، فتسقط سريعاً إلى قاع الماء المظلم ويومض وشاحها الأبيض سريعاً ، ثم يختفي وترتفع وراءه بعض قطرات من الماء ، ثم تظهر تموجات طفيفة على سطح الماء الآسن يكون «يم تشك» بعدها قد حصل على عروسه .

وقد لفت إدوارد طومسون نظر العالم إلى بقايا هذه الحضارة المفقودة في القارة الأمريكية . ووجد علماء الآثار أن تشيشين إتزا لا تقل في روعتها عن مدن اليونان أو روما أو مصر القديمة رغم أنها لم تبلغها في القدم . ونتيجة لهذا الاهتمام عملت حفريات كثيرة ، وأقامت مؤسسة كارنيجى هناك عدة مخازن لموجودات هذه الحفائر .

ولأن طومسون صمم على أن يحول الأساطير إلى حقائق ، صار من اليسير اليوم أن تزور مدينة تشيشين إتزا ؛ وقد أزيلت من حولها الكروم والأشجار وأعيد وضع الأحجار التي تداعت . ويمكن لزوار تلك المدينة القديمة أن يركبوا الآن سيارات حديثة في الطريق الذى

اخترقه طومسون يوماً ما وسط الأدغال ، ويمكنهم كذلك أن يروا المرصد الكبير المستدير الذى كان يدرس فيه المايا تحركات النجوم والذى اخترعوا بوساطته تقويماً أدق من تقاويم عصرنا . ويمكن للزوار أن يتجولوا فى ملعب الكرة حيث كان المايا يلعبون لعبة تشبه كثيراً لعبة كرة السلة التى نعرفها . ويستطيع القصاد ارتقاء أربع ومائة درجة من درجات السلم الضيقة الصاعدة إلى معبد كوكولكان العظيم وهو الإله الثعبان ذو الريش . ومن ذلك المرتقى يمكنهم أن يتبعوا الممر الذى طالما سارت فيه قديما المراكب إلى الطريق المقدس الذى ينتهى بالبئر المقدسة ، حيث يقيم «يم تشك» إله المطر ، الذى لا يزال يحتفظ بعظم كنوزه وعظام عرائسه الجميلات الصغيرات .

الفصل الثالث

وادی الملوك

نشرت الصحف تحت عناوينها الكبيرة عام ١٩٢٣ ،
أنخبار كشف هام ؛ إذ عثر أحد علماء الآثار الإنجليز
على موميا واحد من عظماء ملوك مصر القديمة .. وكانت
الموميا ترقد سليمة في تابوتها الذهبي الذي لم يمسه أحد
منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة .

فمن يكون هذا العظيم الذي بهر أنظار الناس فجأة
بعد رقاذه قرونا طويلة ؟

هذا الملك هو توت عنخ آمون الذي حكم مصر ،
تلك المملكة القوية ، حول ، عام ١٣٥٠ ق . م ، وعمره
إذ ذاك اثنتا عشرة سنة . كان الملك الصغير كصبيان
اليوم . يحب الرياضة بشتى أنواعها . ولما لم تكن كرة
السلة أو كرة الطاولة أو التنس من الألعاب المعروفة في
عصره ، فإنه اتجه إلى حب الصيد واللعب بالقوس

والنشاب . وكان يصيد بقوسه المغطاة برقائش الذهب :
البط البرى والنعام والأسود والضباع وغيرها .

ولم يحكم توت عنخ آمون سوى مدة قصيرة جداً ،
إذ أدركته منيته وهو فى الثامنة عشرة من عمره وحُمل
تابوته على سفينة ، اعتقد المصريون القدماء أنها تعود
بالمالك الشاب فيما بعد إلى العالم السفلى . ووضعت السفينة
على مركبة مغطاة بالأزهار . وجر النبلاء ورجال الحاشية
المركبة الثقيلة ، ومن فوقها التابوت ، إلى مقره الأخير فى
مقبرة بوادى الملوك ، حيث دفن أسلافه . واستمر
موضع المقبرة معروفاً مدة من الزمن ، قد تبلغ بضع مئات
من السنين ، ولكن رمال الصحراء أخذت تسد مدخلها
بالتدريج ثم اختفت عن أنظار الناس ، وضاعت من
ذاكرتهم أيضاً :

ومعظم معلوماتنا عن مصر القديمة استقيناها عن طريق
ماكشفه علماء الآثار من حفرياتهم فى مقابر ملوكها .
ومرجع هذا القول السليم إلى تقاليد الدفن العجيبة ، التى جرى
عليها المصريون القدماء . فقد كانت اعتقاداتهم الدينية



(شکل ۵) غطاء تاپوت توت عنخ آمون

تحتم عليهم أن يضعوا مع جثث الموتى جميع الأشياء التى يستخدمونها فى حياتهم اليومية .

اعتقد المصريون فى بعث الروح بعد الموت . والبعث معناه أن ينهض الشخص من موته ثانية . وقد آمنت بهذه العقيدة شعوب كثيرة أخرى ، ولكن المصريين اعتقدوا أن الروح تظل باقية مابقى الجسد ، وأن فناء الجسد يؤذى الروح . ولذلك حرص أهل المتوفى على أن تبقى جثة فقيدهم سليمة إلى الأبد .

وتسمى الطريقة التى اتبعوها لحفظ الأجسام بالتحنيط ، أو تحويل الجثة إلى موميا . وكان الاعتقاد السائد أن المصريين وحدهم هم الذين عرفوا الأسرار العجيبة لمواد التحنيط ، التى حفظت أجسام موتاهم سليمة لآلاف السنين . ولكن العلماء عرفوا الآن أن الذى ساعد حقاً على منع تحلل تلك الأجسام هو جو مقابرهم الرملية الخافتة الخالية من الجراثيم .

ولما كانوا يعتقدون أن أجسادهم ستبقى إلى الأبد ، فقد احتفظوا معهم فى قبورهم بكل ما يمكن أن يحتاجوا إليه



(شكل ٦) مكان وادي الملوك من وادي النيل

في المستقبل . ولما كان هذا أيضاً هو اعتقاد ملوكهم
الأغنياء الأقوياء : أو الفراعنة ، كما كانوا يسمونهم ،
فلننا وجدنا في مقابرهم أجمل وأنفس ما في بلادهم من
الحلى الثمينة ، والملابس المزركشة والأحذية الرقيقة ،
والأسرة والكراسي المزينة بنقوش من الذهب والجواهر ،

والأواني والعلب المحفورة حفرّاً بديعاً والمملوءة بأنواع الطعام والآلات الموسيقية والأسلحة ، والعربات المذهبة وكراسى العرش أيضاً . كما دفنوا معهم قوارب مجهزة بسبعة مجاديف سحرية ، لتحمل الفرعون في رحلته عبر النهر في العالم السفلى .

ودفنوا معهم أيضاً تنائم كثيرة وصوراً سحرية تضم من التعاويذ ما يكفى لحماية الملك أثناء رحلته الطويلة . وكتبوا على جدران المقابر أدعية وصلوات كثيرة ، لأنهم آمنوا بالآثر السحري للكلمات المكتوبة . فإذا كانت الكتابة تقول إن الملك سوف يحصل دائماً على الطعام فلن سحر الكلمات يحولها إلى حقيقة .

وتتكون هذه الكتابات من علامات جميلة تسمى الهيروغليفية ؛ ومعناها النقوش المقدسة . وقد استمر العلماء زمناً طويلاً لا يستطيعون قراءة هذه اللغة الغريبة . ولولا أنه قد أتيج لهم العثور على لوح سميك من الحجر الأسود هو « حجر رشيد » لبقيت هذه الرموز بدون حل إلى الآن .

عثر أحد رجال نابليون عام ١٧٩٩ على هذا الحجر ،

قرب منصب النيل عند رشيد . وكان الحجر كبيراً في حجم
قرص النصف ، وتغطيه ثلاثة أقسام من الكتابة في لغتين ،
وأحد هذه الأقسام مكتوب باليونانية ، والآخرون ، باللغة
المصرية القديمة بلهجتها الدارجة والهروغليفية . والأقسام
الثلاثة منقوشة عام ١٩٠ ق . م . وتتضمن كلها الكلمات
التي تفقد الفرعون . وبعد عشرين عاماً توصل أحد
العلماء الفرنسيين ، ويدعى شمبايون ، إلى قراءة الرموز
الغريبة ، وذلك بمقارنة الكتابة المصرية المجهولة بالكتابة
اليونانية التي يعرفها .

وبفضل حجر رشيد تمكن العلماء المحدثون من قراءة
الكتابات السحرية المنقوشة على جدران المقابر ، بالسهولة التي
نقرأ بها كتبنا ومجلاتنا اليوم .

ومن اعتقادات الديانات المصرية أن الروح تُسرّ
لدموع الحداد كما تُسرّ لبذل العطاء ، ولذا تأتي الأسرة
لزياره القبر في يوم معين ومعها القرابين وألوان الطعام
والكتب والأزهار وأشياء أخرى مما ينفع في الحياة الآخرة ؛
ولو أن هذه الأشياء الحميلة القيمة بقيت سليمة طوال

السنين ، لكونت لنا قصة رائعة جميلة . ولكن كان هناك مجرمون كما هي الحال اليوم ، وهؤلاء أغرتهم الكنوز التي تضمها المقابر بالسرقة رغم معرفتهم أنهم بسرقتهم هذه الأشياء إنما يخالفون دينهم ويعرضون ملوكهم السابقين للخطر في حياتهم الآخرة . ودخل هؤلاء اللصوص المقابر خلال القرون العديدة الماضية ، وسرقوا كل ما أمكنهم حمله منها .

حقيقة لقد اكتشف علماء الآثار كثيراً من المقابر الملكية ، ولكن أيدي اللصوص امتدت إلى الذهب والكنوز وتناولتها بالبيع منذ أمد بعيد . وبقيت لنا الرسوم والكتابات الجميلة والأشياء التي لم ير اللصوص أنها تستحق السرقة . ومن هذه الأشياء الباقية عرفنا الكثير عن هذه الحضارة الرائعة . وكان حلم كل عالم بالآثار هو أن يجد ، يوماً ما ، مقبرة لم يمسهها اللصوص ، وأن يرقد بها الفرعون وعليه مسوح الدفن المزركشة كما وضعها الكهنة منذ قرون عديدة . وكان عالم الآثار المحظوظ هذا ، هو : هوارد كارتر . وساعده على عمله اللورد كرنارفون ، الثرى الإنجليزى ، الذى

أغرم بالآثار إلى حد بعيد . وقد أذن لهذين الرجلين بالتنقيب عن الآثار في وادی الملوك عام ١٩١٤ م ، حيث كان قد تم كشف ست وعشرين مقبرة ملكية .

وظن الناس وقتئذ ، أن لا فائدة من البحث عن مزيد من المقابر في هذا الوادي ؛ إذ قام بالحفر هناك ، ولمدة عام قبلهما ، عدد كبير من علماء الآثار ، حتى لقد بدا موثقا أن حبة رمل واحدة لم تترك دون غريلة .

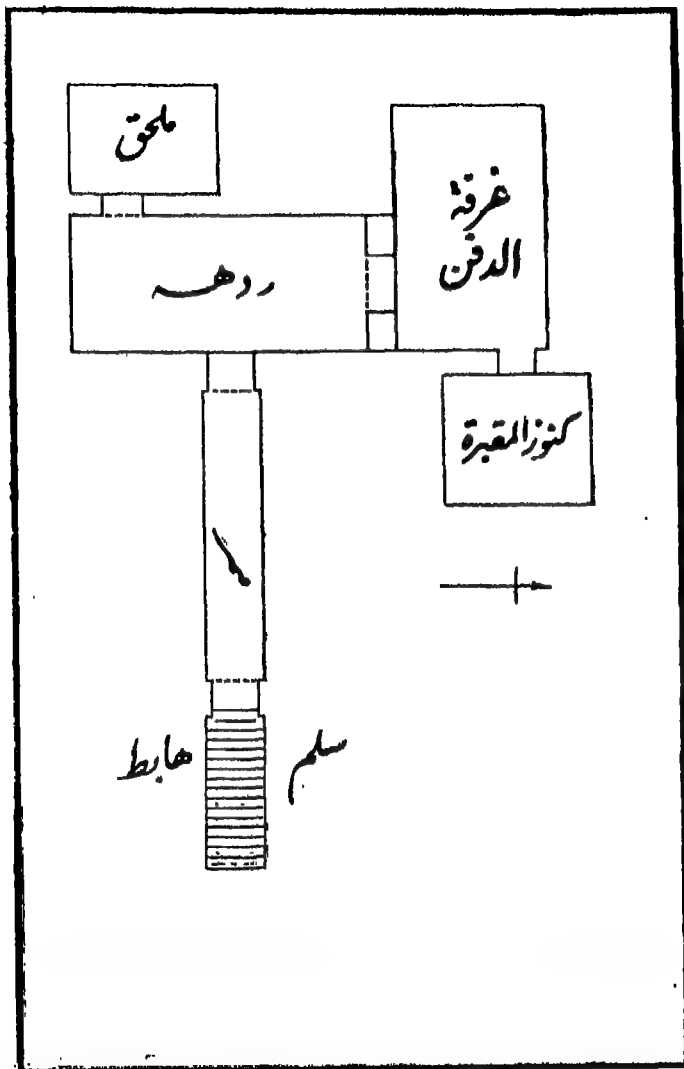
ولكن كارتر وكرنافون لم تفت في عضدهما أقوال الآخرين ، والواقع أن كارتر كان يأمل كثيراً في أن يوفق إلى كشف مقبرة ملك بداته ، وكان اسم هذا الملك : توت عنخ آمون .

اعتقد كارتر ، أن وادی الملوك لا بد أنه يحتوي على مقابر جميع فراعنة تلك الفترة ، ولكن لم يكن ثمة وجود لمقبرة توت عنخ آمون حتى ذلك الحين . ولما كان المنقبون قد عثروا في هذه المنطقة على كأس وصندوق خشبي* يحمل اسمه ، فقد أصبح لزاما أن يسألا أنفسهما : أين توجد إذن مقبرة هذا الملك ؟؟

ساد الاعتقاد بأن وادى الملوك هو مقر دفن توت
عنخ آمون ، ولذلك أعمل كارتر ذهنه في تحديد موقع
المقبرة من هذا الوادى . إن البحث ربما يفشل في العثور
على قبر هذا الفرعون التائه تماماً ، كما يفشل البحث عن
وعاء الذهب الموجود في طرف قوس قرح ، ولكن
هوارد كارتر كان شديد الإيمان بالنجاح ، قوى
العزيمة والتصميم لبلوغه .

مضت على الرجلين ستة مواسم من العمل الشاق
دون أن يعثرا على المقبرة ، فاشتد استياؤهما ويأسهما ،
وبدا لكل من كارتر وكرنارفون أنهما كانا على خطأ
في اعتقادهما أن ثمة مقبرة ما قد يكتشفانها في هذا
الوادى . ولكنهما أصرا على القيام بمحاولة أخيرة
للعثور على الأمل المنشود .

ولم يكد الحفر يبدأ في الموسم التالى ، حتى ضربا
بمعاولهما حجر الدرجات الست عشرة الأولى المنحوتة
الصخر . وحينما انتهيا من الكشف باحتراس عن هذا السلم
الشديد الانحدار ، رأيا منظرًا عجيباً : رأيا بابا مغلقاً



(شكل ٧) تخطيط لمقبرة ثوت عنق آمون

بالإختتام : ترى ماذا وراء الباب ؟ ربما كان مقبرة ناقصة ؟ ... أو ... لعله قبر واحد من الكهنة ؟ : : وعلى فرض أنها مقبرة حقيقية لأحد الملوك ، فماذا ترك منها لصوص القبور لعلماء الآثار ؟

أخذ الرجلان يعملان في شوق شديد للكشف عن الباب ، ولكنهما لم يجدا خلفه سوى دهليز ينتهى بباب مغلق بالإختتام هو أيضاً . وعندما فتحا الباب الثانى رأيا حجرة مملوءة بالكنوز ، وأشياء جميلة متعددة الأنواع . ونورد هنا كلمات هوارد كارتر نفسه التى قالها فى تلك اللحظة المثيرة :

« ثلاثة آلاف سنة مرت منذ أن لمست آخر قدم آدمية هذه الأرض التى نقف عليها ، ومع ذلك فأنت ترى آثار الحياة القديمة كلها من حولك . . ترى بصمات الأصابع على المسطحات المرسومة ، وأزهار الوداع ساقطة فوق العتبة ، وتحس أن كل هذا قد حدث بالأمس فقط ويتبع ذلك إحساس ثقيل سريع — هو مزيج من الشك والتأمل . . . إنه إحساس الإنسان بأنه على وشك أن يضيف صفحة

جديدة إلى التاريخ . . . إنه التطلع والانتظار الملىء بالقلق . . . قلق الباحث عن الكنز المأمول .

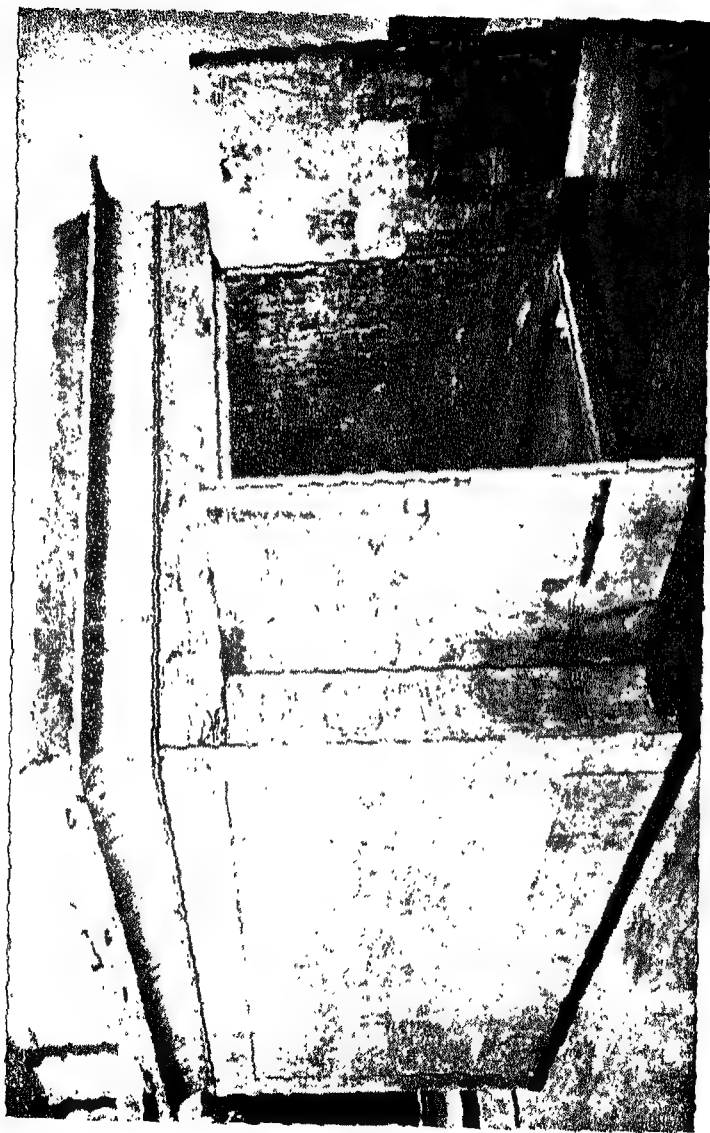
ويمكن أن تتصور مدى الاستياء حينما يتضح أن اللصوص قد سبقوا إلى هذا المكان ، وأن الأشياء وضعت في غير مواضعها : فالملابس أخرجت من صناديقها ونثرت حول الصناديق ، والأسرة التي صنعت على أشكال الحيوانات الغريبة قد اختلطت دون نظام مع الكراسي الصغيرة ، والزهرات المنقوشة ، وكرسى العرش الذهبي ، وصناديق الأطعمة والقرايين وغيرها . وإلى جانب هذا ، أربع عربات ذهبية ملكية محطمة ومكومة بعضها فوق بعض : وحينما كان المنقبون يمهدون طريقا بين تلك الكنوز المتراكمة ، رأوا باباً آخر موصدا ولكنهم سرعان ما علموا أن اللصوص قد سبقوهم إليه أيضا .

واختلط الأمر على عالمي الآثار ؛ إذ كيف تنهب المقبرة على النحو الذي رآياه ، على حين لا تزال الأبواب مقفلة ومختومة ؟ ثم لماذا ترك اللصوص كل هذه الأشياء الجميلة ؟ ومتى حدثت هذه السرقة ؟

وجد كارتر على الأرض ثمانى حلقات ذهبية مربوطة فى وشاح رقيق ، وتبدو كما لو أنها سقطت من شخص وهو فى حالة اضطراب وعجلة . واستخلص كارتر وكرنارفون من هذا الذى شاهدها ، أن لصوص المقبرة أقلقهم شىء ما قبل أن يستطيعوا أخذ الكثير معهم . وفى عجلتهم للهرب ، سقط منهم الشاح ذو الثمانى الحلقات الذهبية . والراجح أن السرقة حدثت بعد الدفن بوقت قصير ، لأن المسئولين الرسميين عن سلامة المقبرة أعادوا لإحكام إغلاق الأبواب بالأختام بعد هرب اللصوص .

وقد سيطر على عقل كل من الرجلين سؤال واحد هو : أين الموميا ؟ لا بد أن خالجهما شىء من الشك ، فقد وجدا أن كل الأبواب المختومة قد فتحت . ياللروعة والسعادة لو أنهما وجدا حجرة مملوءة بالأشياء الغريبة الفاخرة ! لكن ... كيف يحدث هذا واليأس ينتابهما كل لحظة ، لأنهما لم يعثرا بعد على التابوت .

وأخيراً : اكتشفا بابا رابعا لم تفض أختامه بعد ، ولم يسبقهما إليه اللصوص فى هذه المرة ، لقد ظل هذا



(شكل ٨) النادوس الثاني الذي كان يضم تابوت فوت عنخ آمون

الباب مغلقاً منذ ثلاثة آلاف سنة وظلت أختامه سليمة وعليها الاسم الذى طالما طاف بخيال كارتر: اسم «توت عنخ آمون». ووقف إلى جانبي هذا الباب تمثالان كبيران للملك باللونين الأسود والذهبي يحرسان المدخل. وفى النهاية وجد الرجلان نفسيهما أمام الحجرة التى دفن فيها الملك الشاب، وانتهى بذلك الشك الذى طالما ساورهما.

أزاح هوارد كارتر الملاط باحتراس من فوق الباب المختوم، وحينما نزع الباب رأى حائطا مذهلا من الذهب. وانقضت لحظة لم يستطع كارتر وزميله أن يتصورا — من فرط دهشتهم — ماذا عسى أن يكون هذا الحائط! ولكن سرعان ما انكشف سر الحائط الذهبى، فقد كان غرفة كبيرة أو صندوقا مقدسا صنع ليضم رفات الملك فى مقره الأخير. أما حجمه ففى حجم حجرة من حجرات منازلنا الحديثة، ووجد الرجلان على الأرض وحول النواوس الكبير، المجاديف السحرية السبعة التى يحتاج إليها الملك فى عبوره بحر العالم الدنيوى. ونقشت على الجدران كتابات سحرية وتعاويد لتحفظه قويا وفى سلام. وعندما فتحت أبواب

هذا الصندوق الكبير وجدا ثلاثة نواويس أخرى ، كل واحد منها داخل الآخر ، على نحو ما نرى في بعض لعب الأطفال ، وكان كل ناووس يضم أشياء أجمل مما يضم سابقه . وفجأة فترت حماسة عملية الكشف بسبب وفاة اللورد كرنارفون ؛ وذلك قبل أن يتم فتح كل النواويس . . لقد اطمأن الرجل إلى أنه اكتشف مقبرة توت عنخ آمون ، لكن الموت عاجله في أسعد لحظات حياته :

٥ وأخيراً فتح كارتر ومن معه من العلماء أبواب الناووس الرابع الداخلى ، فوجدوا تابوتاً كبيراً من الحجر الأصفر ، يبلغ في حجمه حجم الناووس الذى يكمن التابوت بداخله ، وفى تلك اللحظة بدت القرون وكأنها لم تطو بعد . فقد رأوا ما لم تره عين فى الأزمنة الحديثة . . رأوا فرعون مصر العظيم يرقد فى تابوته ، تماماً كما أرقده يوم دفن منذ أكثر من ثلاثة وثلاثين قرناً .

وفى داخل هذا التابوت الحجرى وجدوا ثلاثة صناديق بعضها داخل بعض ، وقد نقش على غطاء كل منها رسم الملك الشاب ، وأول هذه الصناديق من الخشب ، على حين

صنعت أيدي الملك ووجهه من الذهب الخالص . وفوق الصندوق الثاني ، الذى بداخله ، كانت أكاليل الدفن لا تزال باقية ، كدليل صامت على حزن أرملته الشابة . أما الصندوق الثالث وطوله أكثر من ست أقدام ، فمصنوع كله من الذهب ، وهو من الثقل بحيث لا يستطيع رفعه أقل من ثمانية رجال أقوياء . وبداخل هذا الصندوق البراق استقرت موميا توت عنخ آمون ، وقد غطى الوجه بقناع من الذهب .

وبينما هم يفكرون باحتراس ، اللقائف التيلية المحيطة بالموميا ، رأوا الأساور البديعة والخواتم والتآئم والدلائيات التى تجلب الحظ السعيد ، وكلها من الذهب والأحجار الكريمة . ويبلغ مجموع قطع الجواهر التى وجدت بين هذه اللقائف التيلية ثلاثا وأربعين ومائة قطعة .

ثم ظهر من وراء ذلك كله جسم الفرعون الشاب ، وكأن هذه التآئم والتعاويد السحرية قد فعلت فعلها المرجو ، فمن دون سائر الملوك العظماء الأقوياء من مصر القديمة ، الذين دفنوا



(شكل ٩) مثل من النقوش الرائعة التي تزين بعض أثاث مقبرة توت عنخ آمون .

فى وادى الملوك لم ينبج من عبث اللصوص خلال القرون
سوى توت عنخ آمون .

هكذا انتهت قصة كشف المقبرة ، ولكن شيئاً آخر
بقي يتردد ذكره ، ألا وهو قصة لعنة الفراعنة . . إنها بدأت
بموت لورد كرنارفون عام ١٩٢٣ .

لم يحدث فى تاريخ الآثار اهتمام بكشف ما ، قدر
ما حدث لكشف مقبرة توت عنخ آمون ، فقد حظيت
باهتمام كبير من الصحافة والإذاعة فى كل أنحاء العالم .
وعندما مات اللورد كرنارفون بدأت القصص تطبع عن
« انتقام الفراعنة » . ولما مات آخرون من الرجال
الذين حضروا فتح المقبرة ، خرجت الصحافة على الناس
ومن عناوينها : « الضحية العاشرة لعنة الفراعنة تموت
فى ظروف غامضة » ثم ذكرت فيما بعد « الضحية
الثامنة عشرة » ثم « الضحية الواحدة والعشرون » . ومات
أحد العلماء وهو يصور موميا بأشعة إكس ، فأخذت
الجرائد تكتب لقرائها الحائفين إن هناك لعنة تصيب

كل من يعكر سلام الفراعنة ، وإن هناك جرائم غريبة
مهيئة في هواء المقبرة .

وبعد سبع سنوات من وفاة اللورد كرنارفون
لم يبق من الجماعة التي كشفت المقبرة سوى هوارد
كارتر فقط .

أما كارتر ، فقد أنكر وجود أى علاقة بين
كشف المقبرة وبين حوادث الوفاة هذه . وتم لإجراء
الاختبار على جو المقبرة ، فوجد أنه يكاد يكون
خالياً تماماً من الجرائم ، فليس هناك إذن ما يسمى
« لعنة الفراعنة » . والمسألة — كما أصر على تسميتها —
مجرد جنون خرافة . ولكنه لم يستطع وقف هذه القصص ،
إذ قال الناس : لقد مات أكثر من عشرين شخصاً
من المجموعة التي كانت أول من دخل المقبرة . وحتى
هذا اليوم ، لا يزال الكثيرون يعتقدون « لعنة الفراعنة » .

الفصل الرابع

وحش قصر اللايرنت

في ٢٣ من مارس عام ١٩٠٠ ، غيرت معاول الأثريين الكثير من المعلومات التاريخية التي تناقلتها كتب التاريخ ؛ ففي ذلك اليوم ، أزاحت تلك المعاول المنقبة ، الستار عن حضارة قديمة تضارع في عظمتها حضارة مصر ، وإن كانت جديدة تماماً بالنسبة لسكان العالم الحديث .

أتذكر أسطورة المنطورس الذي يتغذى على لحوم البشر؟ إنه الوحش الخرافي الذي قالوا إن نصفه إنسان ونصفه ثور ، وأنه كان يعيش في جزيرة كريت التي تقع في البحر المتوسط بين مصر وبلاد اليونان . وقد اكتشفت هذه الحضارة القديمة في تلك الجزيرة الصغيرة ، أوائل القرن العشرين .

وهذا الوحش - كما قالت الأساطير القديمة - كان

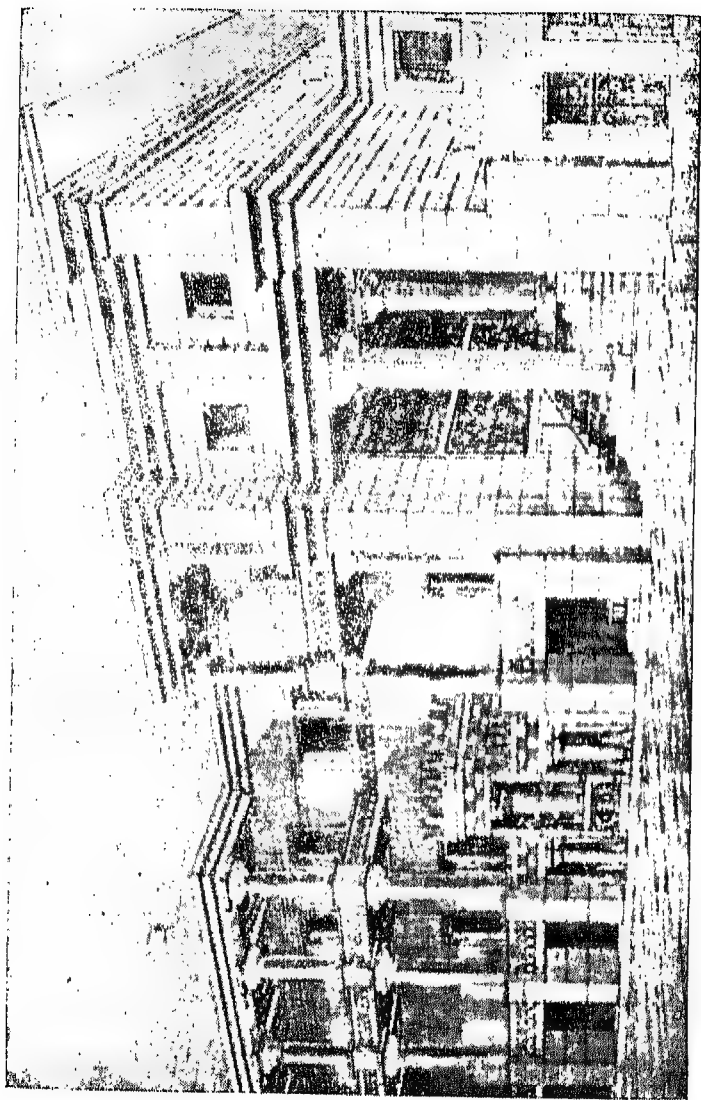
يعيش في بناء يقال له قصر التيه ، بناه المهندس الخاص للملك
كريت العظيم مينوس وجعله مقراً لذلك الوحش .

والتيه الذي كان يعيش فيه الوحش ، مكان ذو طرقات
ملتوية كثيرة التعاريج والمنحنيات ، حتى إن من يدخله
لا يستطيع مطلقاً الخروج منه ثانية ، بل يظل يتجول في قاعاته
حتى يصل إلى مريض المنطورس . وهناك يكون الموت في
انتظاره ، لأن الوحش متعطش للحوم الآدمية دائماً .

وترتبط أسطورة المنطورس بتاريخ الملك مينوس
. وولديه — أندروجس الابن وأريدنه البنت . .

ذهب أندروجس إلى أثينا مرةً للاشتراك في المباريات
الرياضية هناك ، حيث تفوق على الأبطال في كل المباريات .
عندئذ حقد أيجيوس ملك أثينا عليه فأمر بقتله . وأرسل
مينوس أسطوله الحربي العظيم لغزو أثينا انتقاماً لمقتل ابنه .

ولم يكتف مينوس بتخريب أثينا ، بل أمر بانتقام أكثر
قسوة ، وذلك بأن يختار كل تسع سنوات سبعة من شباب
أثينا ، ومثلهم من شاباتها ؛ ليلقى بهم جميعاً في اللابيرنت ،
وهو التيه ، قربانا للمنطورس .



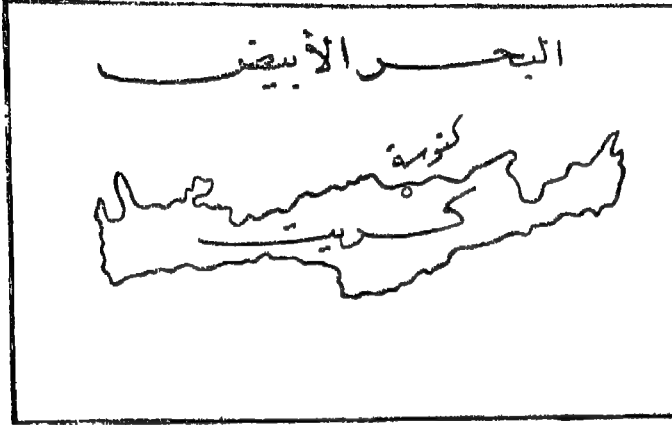
(شكل ١٠) القصر الملكي في كنيسة

دفع الأثينيون قسطين من هذه الضريبة النضليعة . ولكن حينما حل موعد القسط الثالث ، تطوع تسيوس ابن الملك إيجيوس ليكون أحد الضحايا . وصمم على قتل الوحش وتخليص رفاقه .

أبحر الشبان الأثينيون في قارب ذى أشرعة سوداء رمزاً لرحلتهم الحزنة . ووعده تسيوس أن يغير الأشرعة السوداء بأخرى بيضاء أثناء عودتهم إذا استطاع ورفاقه ، بمعجزة ما ، أن يتخلصوا من المنظورس المتوحش .

وفي الليلة السابقة لموعد تقديم الضحايا ، أقيمت الحفلات الحزينة في المسرح الضخم بقصر الملك مينوس ، وهناك رأت إبنته أريدنه ، الشاب الأثيني تسيوس فوقعت في حبه . وفكرت في وسيلة لتزويده بسيف ليقتل المنظورس وبكرة من الخيط لترشده إلى طريق الخروج من اللابيرنت بأمان .

وفي اليوم التالي ترك تسيوس الخيط ينساب خلفه ببطء كلما سار متعمقاً في اللابيرنت . وفي وسط متعرجات القصر قابل تسيوس الوحش الشرير وقتله . ثم عاد الأثينيون مسترشدين بالخيط ، مسرعين إلى باب اللابيرنت وأبحروا



(شكل ١١) جزيرة كريت

في الحال إلى بلاد اليونان ومعهم أريدنه . غير أنهم نسوا في
نشوة فرحهم أن يغيروا لون الأشرطة كما وعدوا أهلهم
من قبل .

وكان الوالد إيجيوس المسكين ، يراقب في قلق شديد عودة
ابنه يوماً بعد يوم . ولما أبصر أخيراً سفينتهم قادمة من بعيد
وأشرعتها لا تزال سوداء ، ألقى بنفسه في البحر وغرق .
وهذا هو سر تسمية ذلك البحر — كما تحكى الأسطورة —
بالبحر الإيجي .

تداول الشعراء والمغنون من اليونانيين القدماء قصصاً كثيرة من هذا النوع . وراقت حكاياتهم عن الشجاعة والوحوش الخيفة ، لخيال الناس على مدى العصور . ولكن هل كانت كل هذه القصص تخص أساطير ، أو أنه من الراجح أن تكون هناك بعض الحقائق الممزوجة ببعض الخرافات ؟

صورت الأساطير كريت على أنها مملكة قوية ، ساد أسطولها على البحر الإيحيى والبحر المتوسط . وقيل إن ملوكها عاشوا في قصور فخمة ، ذات أبواب من الذهب والفضة . وإذا فرضنا وجود جزء من ألف من هذه الصورة الشاعرية لجزيرة كريت ، فإنه لا بد أن تكون بعض آثار هذا الماضي العظيم باقية هناك ، لتراها أعين المحدثين .

لم يتم حتى عام ١٩٠٠ أى دليل على ذلك . هذا بالإضافة إلى أن كتب التاريخ قالت جميعها إنه لم توجد بأوروبا حضارة حقة قبل عام ٨٠٠ ق . م . فقد سكنها قبل ذلك التاريخ قوم من المتبربرين ، وإنه إلى ما قبل ظهور

العصر الذهبي في اليونان لم توجد حضارة من هذا المستوى في كل أوربا .

ولكن ماذا نعمل والقصص القديمة تحتوي أحياناً بعض الحقائق ؟

إن الحكايات المتداولة عن الملك مينوس وشعبه كانت حقيقية . ووصف أسلحتهم وملابسهم وقصورهم لم يكن غامضاً أو ناقصاً بل كان واضحاً ومفصلاً . وهذا هو السبب في أنه كان غريباً أن يهمل العلماء شأن الأساطير القديمة ببساطة ، دون أن يقدروا أن الشعراء الذين رووها ، ربما كانوا يصفون عالماً معروفاً جيداً لديهم . . . عالماً من الحقيقة لا من نسج الخيال . ويبدو غريباً كذلك أن يتصوروا أن الحضارة اليونانية وصلت هكذا بسرعة إلى هذه الدرجة من الرقي دون أن تكون قد تطورت عن حضارة سابقة .

وسواء أكان ذلك غريباً أم غير غريب ، فقد كان هذا هو الشائع بين كل الناس ، إلى أن جاء صبح يوم ملء بالأحداث من عام ١٩١٠ ؛ وذلك حينما كشف

عالم الآثار الإنجليزي آرثر إيفانز الغطاء عن عظمة كريت وأخرجها من خبيآت الماضي المجهول ، إلى نور المعرفة واليقين . بهذا الكشف أوغل في القدم تاريخ انبثاق فجر الحضارة الأوربية مدة تزيد على ألفين وخمسمائة عام .

ذهب السير آرثر أولاً إلى كنوسه عاصمة كريت ليستوضح مدى صحة آرائه عن اختراع الحروف الأبجدية . وكان قراره أن يبقى بها وقتاً قصيراً جداً ، لكن استنار فضوله، وجود بعض الكتل الكبيرة المحفورة من الحجر ، ملقاة هنا وهناك . وبينما هو كذلك فكر في أن يحفر قليلاً في تلك المنطقة ، لالشيء إلا ليشبع فضوله فقط .

ومع أنه بدا من المحال الظفر بشيء يؤيد تلك الحقيقة ، إلا أن معاولة اصطدمت بشيء ما على عمق بضعة بوصات من سطح الأرض . وبعد ساعات معدودات من بدء الحفر وعلى عمق بضعة أقدام ظهرت جدران بناء كبير قائم تحت سطح الأرض .

أعلن إيفانز أن الكشف عن هذا البناء الضخم يحتاج لمدة تسعة أسابيع من العمل المتواصل ، ولكنه كان مخطئاً

في هذا التقدير ، بمقدار نصف عمره . فلقد مضت أربعون سنة كتب في خلالها إيفانز ستة مجلدات عن مستكشفاتة وذلك قبل أن يتم الحفريات التي بدأها .

كان البناء الذي استكشفه إيفانز مدهشا حقاً ؛ فهو قصر كبير في حجم قصر بكنجهام الملكي في لندن . والمساحة التي يغطيها أكثر من عشرة مربعات ، من المربعات التي تقوم عليها العائثر في المدن الكبيرة . والبناء مستطيل ، وله فناء ضخم يغطي وسطه الأسمنت الأحمر . وبعض أجزائه لا بد أنها كانت على ارتفاع خمس طبقات ، لأن بقايا السلم الفخم لا تزال قائمة .

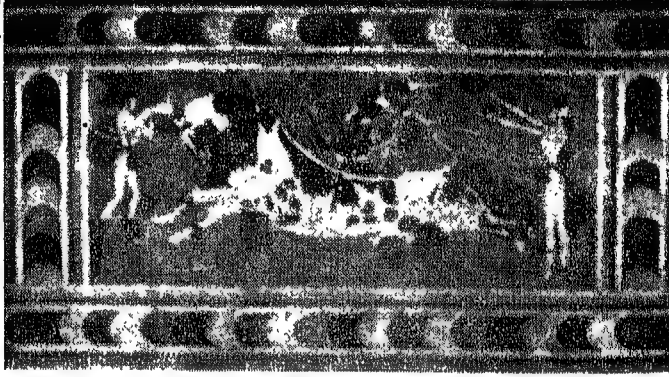
وتصميم القصر معقد جداً ، وبه كثير من الممرات الملتوية والمراقي العديدة ، أما طوابقه الخمسة ، المرتفع بعضها فوق بعض ، وممراته المسدودة وغرفته التي جاوزت الحصر ، فإن دلت على شيء فإنما تدل على أنه متاهة حقاً . ويرى على كثير من حجارتها وأعمدته نقش يمثل البلطة ذات الرأسين وتسمى «لابريس Labrys» . والكلمتان : لابريس ولابيرنس Labyrinth قريبتا الشبه ، كما هو واضح :

استعاد إيفانز كل ما في ذاكرته عن الأساطير القديمة ،
وكتب يقول : إن هذا البناء الواسع الرحيب ، ما هو إلا أحد
قصور التيه التقليدية ، ولا بد أن يكون هذا المبنى هو قصر
الملك مينوس الذى حكم منه مملكته .

وكلما توسع إيفانز فى حفرياته ازداد اعتقاداً بأنه قد
اكتشف حقيقة اللايرنت ، الذى قيل إن المنطورس الخفيف
كان يعيش فيه . وعلى مذابح القصر وجد السير آرثر ، قرون
النذور ، وهى قرون الثيران التى كانت تستخدم فى بعض
الطقوس الدينية المينوية . كما وجد أيضاً نقوداً تحمل صورة
المنطورس على أحد وجهيها ، وتحمل على الوجه الآخر صورة
اللايرنت .

والبرهان القاطع على وجود اللايرنت ، نراه فى الرسوم
الحائطية التى تزوق بها الجدران وهى حديثة التغطية بالجص ،
بحيث تجف الألوان والجص معاً . وهذه الطريقة تحتفظ فيها
الرسوم برونقها مدة طويلة من الزمن .

وأوضح هذه الرسوم الحائطية وأقربها صلة بالأساطير
القديمة ، منظر كان فى ساحة الألعاب بالقصر ، يظهر فيه رسم :



(شكل ١٢) بهلوانات الثور ... مثل رائع من الرسوم الحائطية

ثور واحد وثلاثة بهلوانات ، وشاب وفتاتان . ويبدو الثور في حالة هياج شديد ، في حين أمسك الشاب بقرني الثور وانقلب على ظهره . وتظهر إحدى الفتاتين واقفة في وضع الاستعداد ، رافعة يديها للإمساك بزميلها عند وصوله إلى الأرض . أما الفتاة الأخرى فتقف أمام الثور مباشرة ، وتكاد قرونها الحادة تمر من تحت ذراعيها . ترى هل تستطيع أن تقفز فوق ظهر الثور كما فعل زميلها ؟ أم أن الثور المتوحش سوف ينطحها بقرنيه حتى الموت ؟ إنها لو أخطأت.

في تقدير المسافة أقل خطأ لضاعت حياتها . وهي تظهر هكذا في الصورة معلقة إلى الأبد بين الحياة والموت .

وفي بعض رسوم حائطية أخرى ، تظهر جماهير من الرجال والنساء وهم يراقبون المناظر المروعة في حلبة المصارعة . وكان الكريتيون مغرمين بهذه المناظر كغرام الإسبان اليوم بمصارعة الثيران . على أن هناك فرقاً بين النتيجةين . إذ تنتهى هذه اللعبة في إسبانيا بقتل الثور بالسيف . أما في كريت — حيث كانت استعراضاً للمهارة وخفة الحركة — فغالباً ما كانت تنتهى بموت الشاب الرياضى الشجاع .

وكثير من هذه الرسوم الحائطية ذات ألوان زاهية كيوم رسمت ، رغم أنها ظلت مدفونة آلاف السنين ، وقد تأثر بها إيفانز أيما تأثر . ومعظم هذه الصور تمثل حياة البحر ، وهي بذلك تدل على أهميته بالنسبة للكريتيين . وكتب إيفانز عنها يقول : «إنها كانت لحظة مثيرة حينما أخرج إلى حاضرننا سر هذا الشعب المجهول الذى ظل أمداً طويلاً مدفوناً في عالم النسيان » . وهكذا عثر إيفانز على اللايرنت مريض المنطورس .

وبنيت بهذا القصر ثلاث آبار ، عمق كل منها

خمس وعشرون قدماً . ويحتمل أن كانت هذه الآبار سجوناً مظلمة لأسراهم - ربما كان من هؤلاء الأربعة عشر شاباً من الأثينيين - وذلك إلى أن يحل دورهم في الصراع مع الثور . وكان الهرب مستحيلاً من هذه الحفر ذات الجدران المنحدرة الملساء .

ولم تكشف هذه الحفر المظلمة عن ماضيها المخيف . وإن ما نقوله بشأنها لا يعدو أن يكون ضرباً من الحدس والتخمين . واعتقد كثير من الناس أن الشبان والفتيات في كريت كانوا يدرّبون خصيصاً على هذه الرياضة الخطرة ، وكان شرفاً عظيماً لهم أن يتنافسوا في هذا الملعب .

وما دام لم يصل لنا ما يفسر سر رسوم البهلوانات الثلاثة السابقة ، فلن نستطيع معرفة سرها الحقيقي ، ولكن مما لا شك فيه على الأقل أن هذه المباريات في حلقة الثور كانت هي أساس أسطورة المنطورس ، الذي كان يعيش على لحوم الآدميين . وربما أجبر تسيوس وزملاؤه الأثينيون ، على الاشتراك في هذه المباريات الخطرة مع الثور .

وتبين الحفريات أن القصر وجد منذ ألفى سنة وأن الناس كانوا يعيشون في هذه البقعة قبل ذلك بخمسة آلاف سنة على الأقل وأنه بنى حول عام ٣٤٠٠ ق. م. ثم أصابه بعض التدمير حول عام ١٤٠٠ ق. م. ولما كان عمر القصر ألفى سنة فلا بد أن يكون مينوس أحد الملوك العديدين الذين حكموا فيه ، رغم أن الأسطورة لا تذكر حكماً سواه .

ويرى إيفانز أن كل الحكام الكريتيين كانوا يدعون مينوس ، تيمناً باسم مينوس الأول الذى بنى أول أسطول في العالم . وهذا بالضبط ما حدث فيما بعد عند الرومان حينما أضافوا إلى أسماء أباطرتهم اسم قيصر تيمناً باسم يوليوس قيصر . واليوم ، تعرف الحضارة الكريتية كلها باسم الحضارة المينوية ، نسبة لاسم ذلك الملك البحرى الشهير .

وفخامة القصر ، في كنوسة لا تدع مجالاً للشك في أن كرييت كانت قوية وغنية تماماً كما صورتها الأساطير . ومن أهم ما يلفت النظر هناك وسائل المجارى المائية . ذلك أن بعض المواشير الفخارية التى تحمل الماء والمخلفات كانت ضخمة جداً ، حتى إنها كانت تسع الرجل واقفاً

بداخلها . وما زال هذا النوع من القنوات المائية مستخدماً ، كما كان مستخدماً منذ أربعة آلاف سنة . وقد وجدت بالقصر مواسير لمياه الشرب الباردة ، وأخرى لمياه الحمام الساخنة ، وهذا هو ما ننعم به اليوم في بيوتنا الحديثة . ولم تبّن حمامات ولم تستخدم أنظمة لتصريف المياه في أوروبا ، حتى منتصف القرن التاسع عشر ، تعادل ما عرف في كنوسة . وقد استخدم السير آرثر في وصف حفرياته كلمة « الحديث » مرات ومرات . ومن السهل معرفة سبب استخدامه لهذه الكلمة ، إذا عرفنا اهتمامه بوصف أنظمة المحارى المائية هناك . وقد استخدم أيضاً كلمة « الحديث » في وصف كثير من الملامح المميزة لهذا القصر الرائع .

وكان عند الكريتيين ، على عكس غيرهم من القدماء ، إحساس قوى للمحافظة على الصحة العامة . فهد عدة آلاف سنة ، لم تفكر معظم الشعوب في إلقاء القاذورات والمخلفات خارج أسوار مدنها . وكان هذا — كما جاء في الفصل الأول — من الأسباب التي أدت إلى تطور

المدن بعد قرون طويلة . ولكن الكريتيين كانوا يتخلصون من متخلفاتهم بإلقائها في حفر عميقة بنيت خصيصاً لهذا الغرض ، ويشبه ذلك ما يحدث اليوم في بعض البلاد . والذين بنوا كنيسة كانت عندهم بعض الأفكار الحديثة عن فنون العمارة . ولا بد أن القصر كان مكاناً مبهجاً للغاية بفضل ما تتمتع به من الإضاءة والتهوية . وإذا قورنت منازل الكريتيين بمنازل أهل اليونان والرومان الذين عاشوا بعد الأولين بوقت طويل لوجدنا أن منازل الآخرين سيئة التهوية قليلة الضوء .

وقام إيفانز أيضاً بكشف مدهش ، في الجناح الخاص بالمخازن من القصر ؛ فهناك وجد عدة أنواع من القدور الخزفية الضخمة التي كانت تحتوى على زيت الزيتون ؛ وبعض هذه القدور كانت أطول من الإنسان . ويستدل من هذا على أن الحياة كانت رغدة في قصر كان يحتاج للاحتفاظ لديه بمثل هذه الكميات الضخمة من الزيت .



(شكل ١٣) في هذه القدور الفخمة ... كان يُخزن زيت الزيتون

والملوك الأفوياء يملأون عادة قصورهم الفخمة بكثير من الأدوات الثمينة ، مثل الصحنون الذهبية والتيجان المرصعة بالجواهر والأسلحة المزخرفة الدقيقة الصنع . ومن المؤكد أن حاكما لمملكة غنية كمملكة كريت ، لابد أن يكون قد أحاط نفسه بكل ما يمكن من وسائل الرفه والعيشة الناعمة .

وقد توقع السير آرثر أن يكشف تحفا نادرة في كنوسة ، ولكن من المؤسف أن إيفانز لم يجد سوى شيء واحد من هذه التحف ، هو لوحة للعبة ملكية كان يتسلى بها الملك مينوس مع من يريد منافسته . وهي تشبه لعبة الشطرنج أو « السبيجة » عندنا . وهي مكفنة تكفيتها رائعا بالذهب ، ومطعمة بالفيروز والعاج والزجاج .

وكشف فيما كشف عرش الملك مينوس . وهذا العرش العظيم الذى يعد أقدم العروش فى أوربا كان مصنوعاً من كتلة واحدة ضخمة من الرخام . ولكنه لم يجد معه صولجانا مرصعاً بالجواهر ، ولا سيفاً بمقبض ذهبي

كما تغنى بذلك الشعراء القدامى . ترى ماذا حدث لهذه الأشياء الجميلة ؟

إن السير آرثر يعرف الجواب المعقول ؛ فقد كشف أن التخريب أصاب هذا القصر حوالى عام ١٤٠٠ ق م ، ذلك أن قوماً لا تعرف شخصيتهم معرفة دقيقة ، غزوا مملكة كريت وخربوها . ووجد إيفانز آثاراً لحريق كبير أصاب كل مكان . ولا بد أن كميات الزيت الضخمة المخزونة في الممرات السفلى ، قد زادت لهيب النار الخفية التى أشعلها الفاتحون .

وهناك دلائل يستفاد منها أن تخريب القصر جاء فجأة . وأن أهالى كنوسة لم يبنوا حصوناً قوية لصد أعدائهم . ولم يهتموا وراء الأسوار الحجرية ، بل اعتمدوا على « أسوار من الخشب » هى سفنهم الحربية العظيمة ، وكانوا فى هذا كالبريطانيين فى الأزمنة الحديثة . ولكن ليس بعيد أن يكون لانقضاء ألفى سنة من الأمن التام ما يجعل البحرية المينوية عديمة الأهمية . وعلى أية حال فلم يمكن أحد يتوقع غزو القصر مطلقاً .

وعثر المستكشفون في مكان صنع التماثيل ، على زهرية من الحجر في مراحل تمامها الأخيرة ، وبجوارها أدوات الحفر كما تركها الفنان وقت أن داهمه الغزاة في ذلك اليوم البعيد . كما وجدوا جرة مملوءة إلى نصفها بالماء ، ملقاة بجوار قدر كبيرة من القدور الضخمة ، ولعلها سقطت من أحد الخدم الخائفين . وربما ترك كل من الخادم والمثال عمله ليحمل سيفاً أو رمحاً ضد الغزاة القادمين من البحر ، وربما أجبرتهم النيران المشتعلة على الهرب . وأيا ما كان السبب فإن الزهرية والجرة التي إلى جوارها ، تحملان الدليل الصامت على الهجوم المفاجئ .

وقد تخربت أجزاء عدة من القصر ، وأصبحت الرسوم الحائطية الجميلة بفعل النار الفظيعة . ولكن علماء الآثار رغم أسفهم لإشعال تلك النار وللخسائر التي نجمت عنها ، يذكرون لها بعض الفضل في حفظ أشياء أخرى . والقول بأن النار حفظت شيئاً يبدو غريباً ، ولكن هذا هو ما حدث فعلاً

فلولا هذا الحريق الكبير ما حصلنا على شيء من الصناعات



(شكل ١٤) تمثال بحميل من الخزف لأحد آلهة كنيسة

المعدنية التي لا بد أنها كانت كثيرة في كنوسة قبل الغزو .
فقد انهارت أسقف بعض غرف القصر بسبب الحريق قبل
أن يصل الغزاة لنهب محتوياتها ، ووجد الكاشفون خمس
سلاطين فاخرة من البرونز مدفونة تحت سقف الغرفة المنهار .
وهذه السلاطين هي كل ما تبقى لنا لنعرف منه مدى الدقة
والجمال الذي استطاع صناع المعادن القدماء أن يصلوا إليه
في صناعتهم .

وفي حجرة أخرى ، وجد إيفانز ألقي لوحة صغيرة من
الطين عليها كتابات كريتيّة قديمة . فلو لم تلفح حرارة النار
الشديدة هذه الألواح ونحرقها حرقاً شديداً ، لفتت الطين
من أمد طويل . ولبقيت معظم هذه اللوحات دون أن
يستطيع أحد قراءتها . ولكن شاباً إنجليزياً استطاع منذ
بضع سنوات أن يفك رموزها ويكشف عن أسرارها ، وهذا
الشاب تلميذ سابق لإيفانز ، وخير في الكتابات القديمة ، اسمه
« ميشيل فنتريس » . وقد نجح ميشيل في عمله الشاق باستخدام
الطرق التي تستخدم عادة في حل رموز الرسائل السرية .
ومعظم اللوحات التي تمت قراءتها حتى الآن ، تدل على أنها

كانت قوائم للمواد التموينية . وهى لم تزد معلوماتنا كثيراً عن هذا العالم الذى اختفى قبل أن يصبح توت عنخ آمون ملكا على مصر .

وعلى كل حال فقد توصل علماء الآثار لمعلومات كثيرة عن المينويين من دراستهم لبقايا القصر ورسومه الخائطية الجميلة . فعرفوا الكثير عن هؤلاء القدامى الذين كانوا يوماً ما ينعمون بعيش رغيد ، ويغمر حياتهم البشر والسرور . ولكننا نسأل أنفسنا فى عجب عن حقيقة الدور الذى قاموا به فى الأساطير القديمة التى انحدرت إلينا من ذلك الماضى البعيد . إن كل من يرى الصور الملونة فى رسومهم الخائطية المملوءة بالحياة يمكنه ببساطة أن يعيد ، فى خياله ، هذه المناظر إلى الحياة .

ففى أحد هذه الرسوم الخائطية نرى مجموعة مكونة من ثلاثين رجلاً يتحدثون وهم وقوف ، وقد اتشح كل منهم بمئزر وتمنطق بحزام من الفضة أو الذهب . أما وجوههم فذات لون بنى مائل إلى الحمرة ، وشعورهم

سوداء طويلة ، ولكنها لفتت على شكل عرف يتوج رؤوسهم . وفي رسم آخر نرى مجموعة من الشباب يقذفون الأعداء بالرماح . وفي رسم ثالث نرى صبيا صغيرا يجمع الزعفران ، والصبي يشبه كثيراً صورة مشهورة باسم صورة « الصبي الأزرق » من أعمال المصور الإنجليزي جينزبره . ومن الغريب أن يلون الفنان هنا لون جلد الصبي باللون الأزرق دون البنى المائل إلى الحمرة الذى ألف الفنانون المينيويون استخدامه فى رسم الذكور من الأشخاص .

وأبهج هذه الرسوم الحائطية ، مجموعة الرسوم الصغيرة التى تبين مسرح القصر ، حيث كانت تقام ألعاب السرك والرقص والملاكمة والمصارعة ومصارعة الثور بالذات . ونكاد نحس ، ونحن ننظر لبعض هذه المناظر ، أننا نشاهد فعلا الجمهور الذى شاهد هذه الاحتفالات فى الليلة التى وقعت فيها اريدنه فى حب تسيوس ، أو كأننا نشاهد الجمهور الذى كان يرقب صراع الشابات والشبان الأثينيين فى حلقة الثور . وعلى أية حال فإن هذا الجمهور المتراحم يبدو مليئا بالحياة فى أعيننا .

وتتسع الساحة الكبيرة لخمسمائة شخص تقريباً .
وبعض هؤلاء يجلس على مقاعد فى صفوف كتلك التى
تراها اليوم فى ملاعب كرة القدم ، وهناك مقاصير
خاصة بالسيدات ، كما توجد مقصورة كبيرة للملك .

وتشع رسوم النساء بالبريق من شفاههن القرمزية
وحلین الذهبية وملابسهن الأرجوانية والصفراء أو الزرقاء .
وهذه الملابس ، بفتحاتها الواسعة حول الرقبة وأكمامها
المتنفخة وخصورها النحيلة الدقيقة ، تكاد تكون من ملابس
عصرنا . وشعورهن الطويلة السوداء المتموجة قد عقصت
بعناية فوق جباههن ، وسويت وقوست بملقاط نحاسى ،
حتى لنسأل أنفسنا : كم من الوقت ياترى قضينه أمام
المرأة البرونزية ليتأكدن من أناقتهن .

وتبدو رسوم الأشخاص منحنية إلى الأمام ، وكأنها
مهمة بمشاهدة العرض ، وتلبس الثيران المقدسة ملابس
الاحتفالات ، وهى من الشباك الحمراء أو الأرجوانية .
والعيون كلها مصوبة نحو المتسابقين . والفتيات يلبسن
كالفتيان ، ولا يميزهن عنهم سوى العقود الملونة

والأساور والأشرطة الزرقاء والحمراء التي تحيط بجداولهن .
ولا يعلم أحد كم من هؤلاء الفتيات والفتيان ذوى
الملابس البهيجة أضاعوا حياتهم لتقديم مفاجأة للجمهور .
وربما لن نعرف على الإطلاق إلا إذا عثرنا يوماً ما ، على
مزيد من الألواح الطينية ، وهي عندئذ ستكون لنا « كخيط
أريدنة » الذى يقودنا إلى خارج اللابيرنت ، ويخلصنا من
جهلنا التام بماضيه .

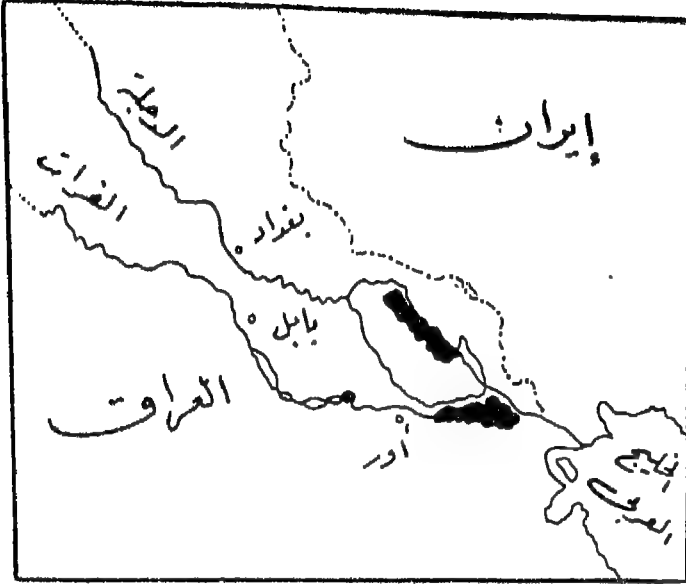
الفصل الخامس

الكتاب المقدس ومعاول التنقيب

تقول التوراة إن إبراهيم ، عليه السلام ، ولد في مدينة أور الكلدية فن مسقط رأسه « أور » هذه ، خرج أول رجل على الأرض ، يعترف « بوحدانية الله » . ولكن أين توجد مدينة أور الكلدية ذات الآثار الغامضة التي ولد بها إبراهيم ؟ إن الخرائط الحديثة لم تحدد موقعها ، ولم يصل علمها لأحد من الباحثين المحدثين .

نحن نعلم أن بلاد كالديا — مهد الحضارة — جزء من الأرض التي وصفتها قصة الخليفة بأنها أرض خصبة تنتج الحشائش والأعشاب والحبوب . . . وأشجار الفاكهة . وفي يوم من الأيام كانت وديانها حافلة بالمدن ، أما ملوكها الأقوياء فقد خاضوا معارك شديدة من أجل السيطرة . والعظمة .

ولكن كل آثار هذا الماضي العظيم فنيت منذ قرون



(شكل ١٦) أرض الرافدين ...

مهد حضارة الآشوريين والكلديين

طويلة قبل الأزمنة الحديثة ، ولم ترد الأسماء الغربية لهذه المدن الأسطورية إلا في الكتاب المقدس (التوراة) ، فإذا كان سكانها بشراً حقاً ، فإن العالم نسيم منذ زمن طويل . وحتى أرضهم الحصبة قد اختفت ، وحقول القمح والشعير التي أنضجتها الشمس الدافئة يوماً ما ، أصبحت هي .

الأخرى سهلاً منبسطة مهجوراً ، تلفح وجهه الحرارة
 الخائفة . وهنا وهناك تتخلل الصحراء القارسة تلال
 ضخمة مملّة ، كأنها نتوءات في سطح الأرض .
 وكان العرب — فيما بعد — يراعون إبلهم قريباً من ذلك
 المكان دون أن يعلموا عن هذه التلال الضخمة إلا القليل ،
 لأنها أصبحت منذ عهد أجدادهم الأقدمين ، مكاناً عادياً
 ومألوفاً من الأرض . ومصادفة ، تشكك الرحالة
 والمسافرون من البلاد الأخرى في أمر هذه التلال ، ماذا
 عسى أن يكون مدفوناً تحت هذه الأكوام الضخمة من
 الأتربة والرمال ؟ ؟

بدأ علماء الآثار يخبون عن هذا السؤال منذ قرن
 مضى ؛ إذ وجدوا مدناً قديمة في جوف هذه التلال .
 مدناً جاء ذكرها في الكتاب المقدس وضاعت من ذاكرة
 لإنسان قرابة عشرين قرناً من الزمان .

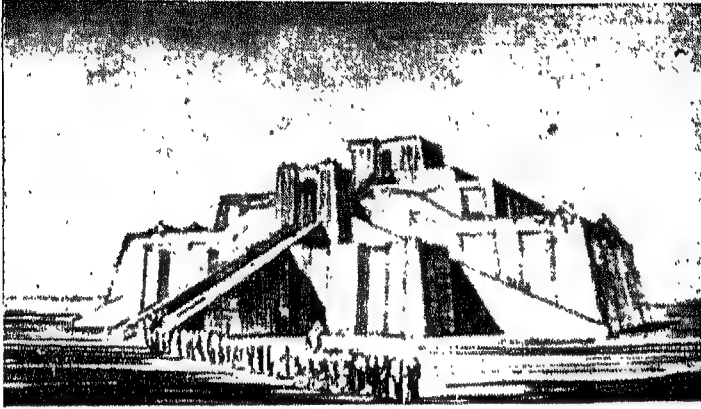
وتقع هذه المدن في إقليم ميزوپوتاميا — ومعناها
 « ما بين النهرين » — لأنها تقع في الحقيقة بين نهري
 عظيمين ، هما الدجلة والفرات . وقد كشفت هذه الأرض

التي كانت خصبة يوما ما ، عن تاريخ الإنسان منذ خمسة
آلاف سنة

ولا بد أن هناك كثيراً من مدن التوراة ، لا تزال
مدفونة تحت الأرض التي يتوق علماء الآثار لكشفها .
ويتمنون أن يثبتوا أن هذه المدن لم تكن أسطورية أبداً ،
وأنها كانت حقيقية مثل منف وبعبلبك ، أو القاهرة
ودمشق .

هكذا بدأ البحث عن أور . . . بدأ في بلاد ما بين
النهرين ، عند منتصف الطريق بين بغداد والخليج العربي
وفي البقعة التي تسمى الآن العراق . وقصة البحث عن
مدينة أور هي عبارة عن قصة عناصرها : قلعة ، ومدينة ،
وجبانة ، وفيضان .

بدأت قصة القلعة عام ١٨٥٤ م ؛ ففي تلك السنة
طلب المتحف البريطاني من قنصل بريطانيا ج . أ . تيلور
أن يبحث للمتحف عن أية علامات تدل على وجود آثار
قديمة في جنوب العراق ، وخرج تيلور للبحث في قافلة
كبيرة تضم الجمال والحمير والحفارين وأدوات الحفر .



(شكل ١٥) تخطيط للزيجورات

وأمله أن يكشف أحد هذه التلال الغامضة ، القابعة
في الصحراء :

وكان العرب يدعون ذلك التل « تل المقيّر » . ومنذ
قرون بعيدة كان الفرات يفيض قرب ذلك التل المحدث
الكبير ، ثم غير النهر مجراه فاختفى نخيل البلح وأشجار
التي كانت تقى المسافرين في الماضي وهج الحر .

وتفقد تيلور ذلك التل الهائل من التراب والآجر
الذي يرتفع نحو ثمانين قدماً . أى ما يقرب من ارتفاع

مبنى يبلغ عشرة طوابق . وتمكن تيلور أن يعد أربعة مستويات مختلفة ، فكان ارتفاع أسفلها ثلاثين قدماً بالنسبة للوادي المحيط بها . وتسلق تيلور المنحدر الحجري الذي يربط المستويات الأربعة ، وعند القمة نظر حوله وأخذته الحيرة من أين يبدأ ؟

ولسوء الحظ كان علم الآثار لا يزال علماً حديث العهد ، ولا توجد هناك قواعد يسترشد بها الشاب في عمله . وانحصر هم العلماء في ذلك الوقت في الظفر بأشياء يودعونها المتاحف ويتفاخرون بها . ولم يكونوا قد بدءوا بعد في وقاية وحفظ الآثار القديمة التي كشفت فعلاً . وأخيراً صمم تيلور على أن يحفر حتى قلب ذلك التل ، آملاً أن يجد كنزاً مدفوناً هناك . وأمر رجاله من الوطنيين أن يحفروا في أعلى قمة لهذا التل العظيم . فسقطت آجرة في إثر آجرة ، وبدأ أن « تل المقيّر » الذي قاوم الزمن وتقلبات الشمس وزحف الرمال ، أخذ يهاوى بيد إنسان ، كما أقامته فيما مضى يد إنسان ! ؟

واستمر تيلور في العمل مدة سنتين تحت حرارة

الصحراء المحرقة . وكل ما عثر عليه كان بضع لوحات طينية محفور عليها نوع غريب من الخط . أرسل القنصل الشاب هذه اللوحات إلى المتحف البريطاني بلندن ؛ وهناك ظلت منسية حيث تراكم عليها التراب ، وهى فوق أحد الرفوف ، كما حدث بالضبط لقصص المايا التى كتبها الأسقف دى لاندنا منذ زمن طويل فى إسبانيا . وفى الحقيقة ، لقد مرت خمس وسبعون سنة قبل أن يعرف العالم قصة ما أفصححت عن سره الألواح الطينية .

وبعد أن توقف تيلور عن العمل ، بقى تل المقير دون أن يتعرض له أحد . ولم يؤنسه فى هذه الأرض الخلاء البعيدة عن العمران سوى مخلوقات الصحراء والرعاة العرب .

وفى أثناء الحرب العالمية الأولى ، عسكرت هناك فى السهل الفسيح بعض الفرق البريطانية ، ومنذ ذلك الحين لم يعد « تل المقير » يرتفع إلى السماء ثمانين قدما ؛ إذ عاد إليه التخريب الذى بدأه تيلور . فقد فعل الجو فعله ولكن يد الإنسان خربت أكثر . واستغل العرب القريبون

والبعيدون التل كمورد رخيص للآجر . وأخذوا منه كميات كبيرة ، حتى إن مستوياته الأربعة التي كانت واضحة يوماً ما لم يعد لها وجود . وأصبح في استطاعة الفارس أن يمتطي حصانه ، حتى قمة الخرائب القديمة .

ومن حسن الحظ أن أحد الضباط البريطانيين هناك كان يعمل بالمتحف البريطانى قبل الحرب ، فأسرع بالكتابة إلى لندن يبلغها أنه يعتقد في وجود بناء قديم مدفون تحت هذا التل العجيب . وأخيراً بدأت تتكلم اللوحات الطينية التي كساها التراب ، وهي ملقاة على أحد الرفوف في المتحف البريطانى .

كانت هذه اللوحات الطينية تحمل كتابة من نوع غريب ذى حروف مثلثة غريبة الشكل ، ولذلك سميت بالخط المسمارى ، لأنها على شكل المسمار (أو الاسفين) . اخترع هذا النوع من الكتابة قوم غير معروفين ، يسميهم العلماء « السومريين » - أو ذوى الرؤوس السوداء ، وذلك بسبب سواد شعر رعوسهم . ونعرف الآن أن السومرية هي أول لغة مكتوبة ظهرت على وجه الأرض .

ولم يكن لدى السومريين حجر أو ورق ، فنقشوا كتابتهم بالضغط على لوحات من الطين اللين ، وقد استخدموا في الكتابة طرف عود من الغاب ، كنوع من الأقلام . وليحفظوا بهذه الكتب أو هذه الكتابات ، جففوا اللوحات الطينية المكتوبة في الشمس ، أو أحرقوها في الفرن ، لكي يكون لها قوام صلب .

ولم يستطع العلماء قراءة الخط المسهارى لمدة طويلة ، وإن درست بعض أمثلة منه في نهاية القرن الثامن عشر . وعلى أية حال فقد مضت مائة عام أخرى ، قبل أن يستطيع العلماء فهم هذه اللغة فهماً تاماً .

وكان تعلم قراءة هذا الخط المسهارى يعترضه صعوبات لا يمكن تصديقها لسبب وجود عدة أنواع من ذلك الخط المسهارى . فقد استخدمه السومريون والبابليون والآشوريون والفرس خلال مدة تزيد على ثلاثة آلاف سنة . بل إن العلماء لم يعرفوا الوضع الصحيح الذى يجب أن تكون عليه هذه اللوحات وقت دراستها . ترى . . هل تقرأ هذه الكتابة من أعلى إلى أسفل ؟ أو هل تقرأ من اليسار

إلى اليمين كالإنجليزية ، أو من اليمين إلى اليسار كالعربية ؟ ولم يوجد هناك حجر كحجر رشيد ، ليكون مفتاحاً لهذه المشكلة المحيرة ، كما حدث عند فك رموز الهيروغليفية .

ومن الغريب ، ورغم كل هذه الصعوبات ، فقد بدأ اثنان مختلفان في حل هذه الرموز في وقت واحد (تقريباً ، وكان الاثنان يعملان بعد تاريخ هذه الكتابة بثلاثة آلاف سنة . ومن الطريف أيضاً أنهما عملاً بعيداً جداً عن أرض السومريين ، كما أن أحدهما كان بعيداً عن الآخر .

وأحد هذين الرجلين مدرس ألماني ، في السابعة والعشرين من عمره ، يدعى جورج جروتفند ، وقد ترجم عشرة حروف من الخط المسماري عام ١٨٠٢ م . أما الرجل الآخر فهو ضابط بريطاني يدعى هنري رولنسون . وفي نفس الفترة التي كان جروتفند يعمل فيها ، كان رولنسون أيضاً قد عرف معنى بعض الحروف . ثم أوفد رولنسون بعد بضع سنين إلى بلاد فارس ، حيث تمكن من رؤية كتابات مسمارية حقيقية . وفي عام ١٨٣٥

استطاع رولنسون ، بوساطة البكرة والحبل ، أن ينزل على سفح هضبة شديدة الانحدار . وهناك وجد كتابة ضخمة بثلاث لغات محفورة على سطح الجبل نفسه . ونقل رولنسون الرموز المحفورة هناك منذ أكثر من ٢٣٠٠ عام وهو معلق فوق الأرض بشكل خطر ، متحملاً في ذلك الآلام . وبعد سنوات عدة من البحث والدرس استطاع أخيراً أن يقرأ هذه الكتابة . وكانت عن ملك من ملوك الفرس الأقدمين .

وهكذا ، مع نهاية القرن التاسع عشر ، وبفضل نبوغ مدرس ألماني وضابط بريطاني ، استطاع علماء العالم كله أن يقرأوا المكتوب على اللوحات الطينية .

وأخيراً . . ماذا عساها أن تكون إذن قصة ألواح « تل المقير » ؟

لقد كتبت هذه الألواح من ٢٥٠٠ سنة ، قبل أن يرى بتر هذا التل . وكان كاتبها هو آخر ملوك بابل ، واسمه نابونيدس ، وقد حكم في بابل حول عام ٥٥٠ ق . م .

وقد سمي نابونيدس هذا التل المرتفع باسم غريب هو «الزيجورات» ، وكان هذا الزيجورات قديماً وفي حاجة إلى الإصلاح ، حينما قدم نابونيدس إليه أول مرة ، وكتب الملك نابونيدس في هذه اللوحات الطينية يقول : « لقد أعدت هذا الزيجورات إلى حالته السابقة ورمتها بالآجر والملاط » .

وهذا الملك الذى رُمى الآثار القديمة لا بد أنه كان أحد علماء الآثار الأول في العالم . وكم يكون حظاً سيئاً لو أن بتلر عالج الزيجورات دون سابق عناية به . . لكن نابونيدس ، كعالم بحق ، سجل اسم المشيد الأصلي لهذا البناء ، وهو الملك أور - نمتو . كما عرّف المكان باسم « أور » أيضاً . وأخيراً يمكن أن تكون هنا مدينة أور التى ورد ذكرها في التوراة ؟ أتكون هذه المدينة هي عاصمة السومريين الذين لا نعرفهم ، والذين ابتكروا الخط المسامرى ؟

لا غرو إذن أن يكون المتحف البريطانى تواقفاً إلى معرفة الكثير . ولكن عدم توافر المال اللازم ، حال

دون القيام بعمليات الحفر حتى عام ١٩٢٢ م ، وفي تلك السنة اجتمعت حشود المتحف البريطاني ومتحف جامعة بنسلفانيا . وكان قائد الحشد عالم أثري إنجليزي في الثالثة والأربعين من عمره ، هو السير ليونارد وولي . وأخذت الفرق تعمل في الموسمين الأول والثاني في « تل المقير » الذي أطلق عليه نابونيدس اسم « زيجورات » .

ومنذ ذلك الوقت تأكد علماء الآثار أن الزيجورات هو نوع من الأبراج المبنية على شكل طبقات أو درجات ، وأنه جزء من المعبد السومري . وقد لونت الدرجتان الأوليان باللون الأسود ، دلالة على ظلام العالم السفلي . والدرجة الثالثة حمراء كلون الأرض . أما المعبد الموجود عند القمة فقد غطى ببلاطات مطلية باللون الأزرق ، لون السماء . وسطح هذا المعبد ذهبي اللون ، كلون الشمس ، وكان السومريون يسمون هذا المعبد « السماوات » .

ومن الحقائق الغربية أن السومريين كانوا دائماً

يضعون مزاراتهم المقدسة على قمم هذه الأبراج العالية . ولا يعلم أحد السبب في هذا ، ولكن يعتقد معظم العلماء أن ذلك راجع إلى إقامة السومريين فترة طويلة في أرض كثيرة التلال ، قبل استقرارهم في أور . وكانوا يصورون آلهتهم دائماً واقفين فوق الجبال . واعتقد السومريون - نتيجة لهذا - أن الحياة كلها جاءت من الجبال . والكثير مما وصلنا من نماذج الفن السومري التي عندنا الآن ، من الحيوانات التي تسكن الأقاليم الجبلية كالخراف . وهناك أدلة أخرى على أن كل درجة من درجات الزيجورات كانت مزروعة يوماً ما بالأشجار ليبدو البرج كله كالغابة الجبلية .

وعقيدة عبادة الآلهة القائمة في أماكن مرتفعة نجدها بين سكان البلاد الجبلية . ولكن حينما استقر السومريون في سهول ما بين النهرين المنبسطة كان عليهم أن يبنوا هذه الأبراج المرتفعة ، وهذا بالضبط هو ما فعلته جماعات المايا حينما جاءت إلى يوكتان وأقامت معابدها على قمم أبنية كالأهرامات . ولم يفعل السومريون

أكثر من بنائهم مرتفعات صناعية من الملاط والآجر سموها بالزيجورات .

وقد وجد « وولى » كتابات تقول إن زيجورات « أور » بنيت حول عام ٢١٠٠ ق. م . وكانت جزءاً من معبد نئار ، الإله القمر ، ومعبد نئار - الذى هدمه تيلور - كان يتوج يوماً ما البرج الضخم المبنى من الآجر . والحقيقة أن جبل الإله هذا كان جميلاً جداً منذ أكثر من أربعة آلاف سنة ، حين كانت الأشجار الخضراء والحدائق المعلقة تكسو شرفاته . وفى أيام العبادة كان رجال الدين ، فى ثيابهم الرسمية ، يصعدون السلم الواصل بين الأرض والسموات ، ويحملون معهم تمثال نئار ، ويمرون بالحوائط الآجرية الملونة حتى يصلوا إلى القمة . وهناك يدخلون المعبد الأزرق المذهب ، الذى يبدو كالجوهرة ، وهو يرتفع هكذا فوق السهول والوديان .

وقد كشف « وولى » أربعة معابد أخرى مجاورة للزيجورات ، لأن نئار كان أحد آلهة السومريين ، فقد كان الإله الخاص بمدينة أور ، وكان راعيها المقدس .

وأما أقوى آلهة سومر الأربعة ، فهم إله البحار ، وإله السماوات ، وإله الهواء ، والإلهة الأم العظمى .

وكان القدماء يعتقدون أن آلهتهم يتصرفون كالناس . فكان الناس يقصدون المعابد ، حيث الآلهة ، بالطعام والجملة والنيبذ ثلاث مرات في اليوم ، وكانوا يعتقدون أن لآلهتهم عائلات ، وأنهم يذهبون للحرب والقتال ، بل إنهم يخافون كما يخاف البشر تماماً .

وحينما تم كشف الزيجورات وما حولها من معابد ، كان علماء الآثار قد عرفوا الكثير عنها . وبالرغم من التخريب الذي أحدثه تيلور ، فإن الزيجورات في « أور » تعتبر من خير الأمثلة الأثرية التي تتمتع بالحفظ والرعاية البالغين من بين العالم .

ولكن ماذا هناك عن المدينة ، والجبانة والطوفان ؟

لا شك أن هذه المدينة هي مدينة أور ، التي لم يعثر وولى ومساعدوه بعد عليها ، رغم ورود ذكرها في التوراة . لقد وجدوا برجا ومعابد وكتابات عن

المدينة ذاتها ، ولكن أين المنازل والشوارع ؟ ...
من المؤكد أن يكون عدد كبير من المتعبدين قد عاشوا
قريباً من معابد الآلهة الجميلة .

أتذكر الأسطورة الخيالية التي تحكى قصة الأميرة
الجميلة النائمة من أثر تعويذة سحرية ، وأن لاشيء
يوقظ الأميرة من نومها سوى قبلة من الأمير الجذاب ؟
إن قصة مدينة أور ، تحكى قصة الحضارة النائمة المنسية
من العالم طوال آلاف السنين . إنها قصة مملكة كانت
تنتظر معولا بصيرا فى يد عالم من علماء الآثار ليوقظها
بعناية من نومها الذى دام قرونا طويلة . وقد حرر
السير ليونارد وولى مدينة أور من سلطان تعويذتها
السحرية والآن . . . تستطيع الجدران المتهمة التي
عاشت طويلا أن تجيب فى صمت عن استفسارات سائلها
الحديث .

وقد تم كشف مدينة أور تحت تل منخفض ، يبعد
قليلا عن برج الزيجورات . ويبدو واضحاً أن الناس
عاشوا هناك أجيالا عدة ، لأن التل مكون من طبقات

جديدة . ، وأن المباني فى كل طبقة بنيت فى عصر مختلف عن الآخر . وكان الملوك الجدد ، حينما يتولون زمام السلطة ، يعيدون تخطيط المدينة ، أو يضيفون إليها حسب آرائهم الخاصة ووفق الذوق السائد فى عصرهم . وكانت المنازل الجديدة تبنى فوق أساس المنازل القديمة . ولا شك أن هذه الطبقات المختلفة قد تكونت ببطء شديد .

ويمكن أن نتخيل بسهولة أن رفع الانقراض عن مدينة مثل أور ، يعتبر أكثر تعقيداً من رفع الانقراض عن مدينة تتكون من طبقة واحدة فقط ، كما هى الحال فى تشيشين اتزا . وقد امتدت مدينة أور مسافة أربعة أميال طولاً ، وميلين عرضاً على التقريب . وكانت مدينة مسورة ذات شوارع عدة ، ضيقة كثيرة الالتواء . وكانت المنازل التى بنيت من طابقين من الآجر ، كبيرة ومريحة . احتوى بعضها على ثلاث عشرة أو أربع عشرة حجرة ، واشتمل كثير منها على فناء داخلى ذى أرضية مبلطة . وكانت الأبواب منخفضة وذاات عقود .

وقد أدهشت هذه العقود السير ليونارد . فشعب
المايا الخبير بفنون البناء ، لم يعرف استخدام العقود
على الإطلاق . أما السومريون الذين سبقوا المايا بآلاف
السنين ، فقد عرفوا جميع العناصر المعمارية الهامة اللازمة
للبناء ، والتي يعرفها المماريون المحدثون .

وقد استطاع علماء الآثار أن يقرءوا تقارير عن
المعاملات القديمة ، مكتوبة على قطع مكسورة من الألواح
الطينية . كما وجدوا ألواحاً أخرى ، عليها تمارين أو مسائل
حسابية ، كتبها تلاميذ المدارس . ويمكنك أن تتخيل
ما تكون عليه الدروس إذا ما نقشت على الطين اللين ،
بدلاً من كتابتها بالقلم الرصاص على الورق !

وقد حاول وولى أن يختبر الفرن الذى وجده في
أحد المنازل ، ورأى أنه لا يزال صالحاً للاستعمال ،
وهكذا أشعل النار في أقدم مطبخ في العالم .

لقد نجح المستكشفون إذن ، وأثبتوا وجود مدينة
أور الواردة في التوراة والتي كان أمر وجودها غامضاً
يوماً ما ، ويستطيع المؤرخون المحدثون اليوم أن يرسموا

صورة حية للحياة في هذه العاصمة القديمة ، بعد أن تم الكشف عن منازلها وشوارعها وكتاباتها .

غير أن أور لم تفصح عن جميع أسرارها بعد . ولا بد للمعول أن يتعمق أكثر وأكثر في مجالات الزمن القديم ؛ إذ لا تزال في مدينة أور صفحات جديدة ومبيرة من تاريخ الإنسانية ، بحاجة إلى أن تكتب وتُنشر . وفي ربيع عام ١٩٢٧ ، كشف وولى عن جبانة ضخمة تقع خارج أسوار المدينة بمقدار ٢٠٠ قدم ، وكانت تستخدم بين عامي ٢٩٠٠ - ٢٧٠٠ ق. م . وقد وجدت المقابر تحت أكوام الخلفات التي ألقاها المواطنون من فوق أسوار مدينة أور . واستمر العمال يحفرون إلى عمق كبير ، لأن طبقات الردم والأنقاض بلغت في سمكها أربعين قدماً .

ومن حسن حظ المؤرخين وعلماء الآثار أن الأقدمين لم يحكموا تدبير شئونهم المنزلية . ويعتبر هذا بالنسبة للتاريخ القديم كاللغز الذي يتكون من مجموعة قطع

صغيرة ، يكمل بعضها بعضها . فإذا عثر العلماء ، مثلاً ، على قطع من الفخار ، وضمت هذه القطع بعضها إلى جانب البعض ، أمكن للعلماء أن يجمعوا الحقائق التي تصلح للتاريخ لمدينة قديمة . وقد تكون بعض أجزاء هذا اللغز أو هذه الموجودات ، قطعة صغيرة من البرونز أو قطعة من الكهرمان . والعثور على مثل هذه القطع قد يساعد علماء الآثار على وضع خطط لطرق التجارة التي ارتادها التجار في عصور ما قبل التاريخ . ولا شك أن الدراسة العلمية لكومة من سقط المتاع من العصور القديمة ، في مقدورها أن تفيدنا بمعلومات كثيرة عن الماضي .

وتتألف جبانة مدينة أور من طابقين رئيسيين ، رغم أننا قد نجد أحياناً ست مقابر ، الواحدة فوق الأخرى . والمقابر السفلى هي الأقدم بطبيعة الحال . وعندما أوشك الموسم الأول للحفر على النهاية ، عثر سير وولى على ثلاثة اكتشافات مثيرة في أرض أقدم المقابر . كان أول هذه الموجودات خنجراً ذهبياً رائعاً ، له غمد من الذهب . أما الثاني فمجموعة رقيقة من أدوات

التجميل المصنوعة من الذهب . وهذا يؤكد لنا أن سكان مدينة أور كانوا يتمتعون بقسط كبير من النعمة والترف فى حياتهم .

وكان ثالث ما عثر عليه وولى ، أثراً غير مصنوع من الذهب ، وإنما صنع من الفخار ، وقد كسا جدران حفرة كبيرة ، وكان سليماً كما تركه صانعوه الأول . أما أرضية الحفرة فكسوة ببلاطات خشنة من الحجر الجيرى .

وقد أثار هذه البلاطات دهشة سير وولى ، لأنه لا يوجد إطلاقاً أى نوع من الحجر فى دلتا الرافدين ، بل ولا حتى أى نوع من الحصى . إن جر هذه الأحجار من الصحراء التى تبعد نحو ثلاثين ميلاً عن هذا المكان ، ما هو إلا نوع من الإسراف الذى لم يسمع به أحد . والحقيقة أن سير وولى كان تواقاً لمعرفة ما يمكن أن يكون تحت هذ البلاطات .

ولكن كان عليه كعالم آثار أن يتذرع بالصبر ، لأن موسم الحفر كان قد انتهى ، وأصبح لزاماً عليه أن ينتظر

طويلا ، إلى أن ينتهى فصل الصيف الحار ، ليستطيع معرفة قصة هذه المقبرة . وكان السير وولى يفكر خلال شهور الصيف الطويلة فى أمر هذه البلاطات واحتمال كونها سقفاً للمقبرة ، لا أرضية للحفرة التى كشف عنها .

وفى الخريف عاد المستكشفون إلى العمل بآمال كبيرة . وكان ليونارد وولى على حق ؛ إذ كانت البلاطات الحجرية سقف مقبرة ذات حجرتين . أما أرضية الحجرتين فكانت مغطاة هى الأخرى . ببلاطات من الحجر الجيرى ، حتى إن هذه المقبرة كانت من نوع لم يحدث أنهم وجدوا مثله من قبل .

كانت جميع المقابر التى كشفوها من قبل - وعددها:

١٤٠٠ مقبرة - عبارة عن حفر بسيطة ، أما توأبيتها:

فن الخشب أو من الأغصان المجدولة أو من الطين . وفى بعض الحالات ، بلى الخشب وبلت الأغصان المجدولة ، غير أن الأرض التى حول التابوت كانت لا تزال تضم طبقة رقيقة جداً من تجزيعات الخشب ، أو الأغصان المجدولة . وإذا كان مجرد اقتراب هواء

التنفس يتلف هذه البقايا ، إلا أن الصور أظهرتها بوضوح كبير ، ولدرجة مكنت سير وولى من أن يصف بدقة الحالة الأصلية التي كانت عليها التوابيت في البداية .

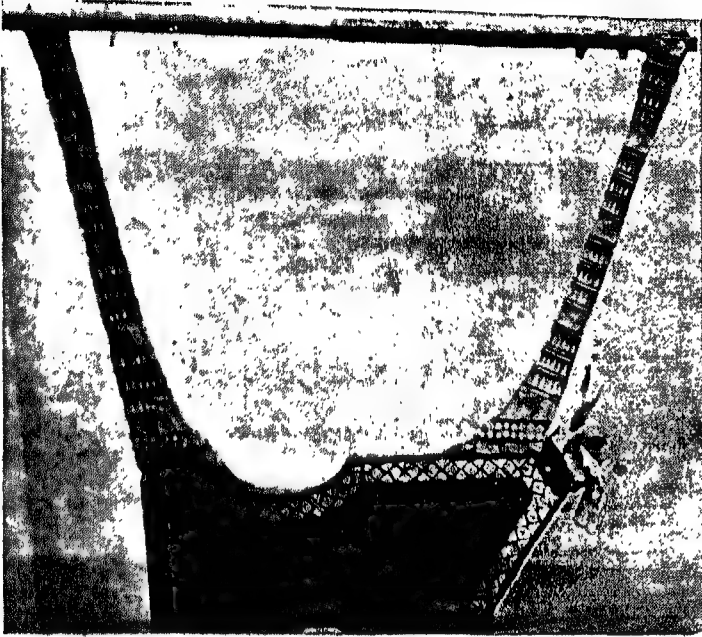
وزيَّنت الأجسام التي كانت مدفونة في هذه المقابر ، بالخلي والمجوهرات ، ووجدت معها أسطوانات من الطين كانت تستخدم كأختام لتوقيعات أصحابها . كما وجدت أيضا دبابيس وسكاكين دقيقة الصنع ، لأن أهل أور ، الذين عاشوا حول عام ٢٩٠٠ ق . م . ، كانوا مهرة في صناعة المعادن ، وكانت المقبرة الحجرية أكبر بكثير من المقابر العادية ، حتى إن وولى اعتقد أنها لا بد أن تكون لأحد ملوك أور . لكنه لم ير في هذه المقبرة الملكية الأشياء العجيبة النادرة المنتظر وجودها .

وعندما تعمق العمال في الحفر في سقف المقبرة ، لم يجدوا سوى بعض أوان من النحاس الأحمر ، وقطع متناثرة من تاج ذهبي . والحقيقة أن اللصوص قد سبقوهم إليها ، كما حدث بالضبط في معظم مقابر الفراعنة

المصريين ، لأن سرقة المقابر كانت من أقدم الحرف في العالم .

وعلى الرغم من هذا فلم يرض وولى لنفسه باليأس ، واعتقد أنه لا بد أن توجد في فناء المقبرة الواسع بعض مقابر ملكية أخرى . وكان على صواب فيما اعتقد أيضاً هذه المرة ؛ إذ عثر على خمس مقابر ملكية أخرى كان قد نهبا اللصوص وخربوها . لكن بقي من تلك المقابر الكثير مما يسر العلماء ويسد ثغرات في تاريخ الإنسان . لم يعد هناك شك إذن في أن مملكة أور كانت ذات حضارة رفيعة ترجع إلى أربعة آلاف وثمانمائة سنة . ولا بد أن تلك الحضارة عاشت قبل ذلك بمئات السنين لكي تصل إلى هذا المستوى الرفيع .

أما الآثار القيمة التي عثروا عليها في المقابر الملكية فقد دلت على براعة التصميم والدقة المتناهية التي وصل إليها الفن السومري . واشتملت هذه الآثار على تيشارة يزينها رأس ثور من الذهب . وقناع لإحدى الملكات مصنوع من الذهب أيضاً ، وهو على درجة من الإتقان



(شكل ١٧) الهارب ... آلة موسيقية وترية يزينها رأس
ثور من الذهب

لا يمكن تصورها ، ورأس أسد من الفضة ، وكثير من
الكؤوس الذهبية ، والسلاطين ، والأسلحة ، والأدوات
الأخرى . ولم تكن هذه النفائس أقل روعة وجمالا من
تلك التي عثر عليها في مقبرة توت عنخ آمون . ومع

ذلك فإن أور كانت أقدم من مقبرة توت عنخ آمون بأكثر من ألف سنة .

وكان هناك سر سوف يبهز الإنسان ، سر وشيك الظهور للعالم ، سر حفظه مقابر أور خمسة آلاف سنة تقريباً .

ففى شتاء عام ١٩٢٧ م . عثر العمال على حفرة كبيرة توصل إلى صف من المقابر الحجرية الخاصة بالملك أبارجى والملكة شوباد . وعثر فى الوقت ذاته تقريباً على خمسة أجسام يرقد الواحد منها بجوار الآخر . وربط فى وسط كل جثة خنجر من النحاس الأحمر ، ووضع بجوار رأس كل متوفى كأس من الفخاز . وعلى أية حال فإن دهشة وولى كانت عظيمة حين وجد خمس جثث دفعة واحدة وبدون تواييت .

وحينما نقلت هذه الأجسام فوجئ علماء الآثار بعشر جثث أخرى أسفل الأولى . وكانت الجثث هياكل للنساء وضعن بعناية على صفيين ، ومازالت معهن أغطية رءوسهن وعقودهن الجميلة ، ووجد فى آخر الصف هيكل عظمى ، له تاج ذهبي لعازفة على القيثارة ،

وكان عظم أصابعها لا يزال موضوعاً على حطام
قيثارتها .

ولكن ما هو سر وجود هذه الجثث الخمس عشرة
معاً ؟ سوف نعرف السر في لحظة ما ، ما دام الممول لم
يكشف بعد عن آخر هذه المفاجآت المثيرة .

كان الكشف التالى هيكلين عظميين محطمين للحمارين
يجوار العربة التى كانا يجرانها يوماً ما . وكان السائسان
لا يزالان يمسكان باللجامين اللذين يمران من خلال
الحلقات الفضية . ثم وجد وولى بعد ذلك هياكل عظمية
لسته من الجنود فى رتب متتالية ، ولهم نخوذات وحراش من
النحاس الأحمر . ووجد كذلك بقايا لعربتين من الخشب
يجرهما زوجان من الثيران ومعهما سائسهما . ومع أن
العربتين قد تفتتتا ، إلا أن تصويرهما أظهر آثار
العجلات الخشبية وآثار إطاراتها الجلدية . واستندت إلى
الجدار الحجري بالمقبرة الملكية أجسام تسع من سيدات
البلاط ، وكانت لا تزال عليهن أغطية رعوسهن الذهبية
البيجة مع العقود والأقراط ، ووجدت على أجسام



(شكل ١٨) تاج الملكة ... مثل من دقة الصناعة وبراعة الفن

السيدات قطع من الصوف الأرجواني المطرزة بالخرز ،
وتناثرت بين هذه الأجسام وبين العربات مجموعات أخرى
من الجثث ملأت أرض تلك المقبرة الكبيرة بالهياكل
العظمية .

وقد نهب اللصوص مقبرة الملك ، ولكن علماء
الآثار عثروا على جثة الملكة شوباد لم يمسهما أحد داخل
مقبرتها ، ذات الجدران الحجرية . وكان إلى جوار هيكلها
العظمى كأس ذهبية ، أما الجزء العلوى من جسمها فقد
غطى تماماً بكميات كبيرة من البواهر الثمينة النادرة .
وكان غطاء رأسها الذهبي الفاخر لا يزال يزين جمجمتها ،
بينما تحول شعرها الطويل المستعار إلى تراب ؛ وقبعت إلى
جوار عربتها جثث وصيفاتها . وانتثرت على الأرض من
حولها أعداد من الصحف الذهبية تحمل الهدايا والقرايين .
ووجد سير وولى مع هذا زوجين من الأطباق المخارية الشكل ،
من الذهب والفضة ، وكانت لا تزال توجد بهما بقية من
مسحوق أخضر ، تحتفظ به الملكة في حقيبتها لتتجمل به في
الحياة الآخرة .

وطوال المواسم الثلاثة التي استغرقتها الكشف عن الجبانة ، عثر المنقبون على كثير من حفر الدفن هذه ، فكان بإحداها خمس وستون ضحية ، وبالثانية أربع وسبعون . وقد تساءل القائمون بالكشف : كيف تم ترتيب هذه الأجسام على هذا النحو حول جثث حكامهم ، وكيف كانت وسيلة موت أصحابها ؟

اعتقد وولى أول الأمر ، أنهم لم يموتوا عمداً لأن أغلبية رعوس النساء الأنيقة التي كانت تتدلى منها أوراق وأزهار ذهبية ، بدت وكأنها لم تمس أو تضطرب . أما الحيوانات فقد سقطت ساكنة تحت سروجها وإلى جوارها سيّاسها . وكان الجند يرقدون وكأنهم في وضع « انتباه » . واعتقد سير وولى في النهاية أنهم ضحوا بحياتهم عن طيب خاطر . وربما كانت الكؤوس الذهبية التي إلى جوارهم تحوى بعض العقاقير التي تسلم أجفانهم لنوم هادئ ، وهم في الأوضاع الصحيحة .

ثم أهيل التراب على تلك الأجسام غير الواعية وتركت لتنام طويلاً خلال العصور ، وهم إلى جوار جثث

ملوكهم الذين ضحوا بحياتهم من أجلهم .

ما أروع ذلك الجمع الذى أخذ زينته واكتسى بالملابس الرقيقة والجواهر النادرة ، واجتمع فى الحفرة المفتوحة فى انتظار الجنازة الملكية . إن باقى زوجات الملك ، وأوفى خدم الملكة ، وأخلص الجند ، وحرس القصر ، وسواس نخيله ، كل هؤلاء ذهبوا مع الملك والملكة فى رحلتهم من هذا العالم إلى العالم الآخر

ولم يحدث أن عثر عالم آثار فى أى بلد من العالم على تسجيل لحفل مثل ذلك الحفل . وفى أور نفسها ، فإن مثل هذا العدد الهائل من الضحايا البشرية لم يذهب هكذا إلا تشریفاً للملكية ، لأن السومريين اعتقدوا أن الملك والملكة أشخاص أسمى من البشرية ، أى أنهم آلهة على الأرض .

والذى انتهى إليه سير وولى بشأن هذه الضحايا البشرية تفسير معقول ، ولكن أحداً لن يعلم الحقيقة على وجه التأكيد ، فقد أطبق الضحايا شفاههم منذ

أكثر من خمسة آلاف سنة وبقيت عظامهم فقط ، لتحكى
لنا القصة .

وبمجيء ربيع عام ١٩٢٩ م ، كان وولى قد دخل
فى أعماق تاريخ مدينة أور حتى عام ٣٠٠٠ ق . م .
تقريباً . ولكنه كان يريد أن يعرف كم من الزمن
عاش الناس فى أور قبل هذا التاريخ ، وفى سبيل هذا
صمم على دق مجسات أو حفر أنفاق تحت سطح المقابر
القديمة . وأن يستمر فى الحفر حتى يصل إلى التربة
التي رسبتها الأنهار ، قبل أن يطاء الإنسان الأول أرض
هذا الوادى .

وأخذ وولى يدرس بعناية الأشياء التى كشف
عنها المعول ، بينما كان العمال يتعمقون فى الحفر بأناة
فى جوف الماضى . وكان دائماً يجد نفس النوع من
الأدوات المعدنية والأواني الفخارية المصنوعة بالعجلة .
ولذا كانت الكتابة على اللوحات القديمة رديئة ، فإن
سير وولى لم يجد فى الكتابة الأحداث سوى تغيير طفيف ،

فقد سارت الحياة في أور خلال القرون على وتيرة واحدة تقريباً .

وأخيراً صادف العمال طبقة من الطمي الخالص . وكانت هذه الطبقة خالية تماماً من بقايا صناعة الإنسان . وهكذا بدا أنهم وصلوا إلى التربة الأصلية للنهر .

لكن وولى عرف في الحال أن طبقة الطمي هذه كانت أعلى بكثير من سطح النهر ، وأن عليه أن يدق مجسات أعمق من ذلك . واستمر الطمي يحمل ماءً إلى عمق أكثر من ثمان أقدام

وفجأة توقف العمال في دهشة ، إذ وجدوا تحت طبقة الطمي طبقات جديدة من الحجارة الصغيرة ، ووجدوا شيئاً آخر . ذلك أن الأواني الفخارية التي عثر عليها في هذه الطبقة الجديدة شكلت بالأيدي ولم تصنع بالطريقة السابقة ، طريقة العجلة . أما الأدوات الأخرى فمصنوعة من الحجر والصوان ، لا من المعدن ، وحتى الآن لم يكن يشبه ما رأوه من قبل .

الواقع أنهم وجدوا بقايا حضارة مختلفة تماماً عن

حضارة أور على عمق ست عشرة قدماً من مستوى سطح
أور التي عاشت حول ٢٧٠٠ ق . م . لقد وجدوا مدينة
ذات منازل من الآجر حسنة البناء ، عمرها ستة آلاف سنة .
وعرف وولى وقت ذاك أنه اكتشف أقدم حضارة على
الأرض ، لقد ظن العلماء أن المصريين كانوا أقدم الشعوب
المتحضرة ، ولكنهم وجدوا هنا مدينة أقدم بقرون كثيرة
من بدء الحضارة في حوض النيل . وهكذا كتبت
معاول الأثرين الفصل الأول في سجل التاريخ .

• كان هناك شيء واحد يثير الشك عند وولى ، وهو:
ما الذى سبب مثل هذا الفراغ أو الانقطاع في تاريخ
أور ؟ لماذا كانت البقايا أسفل طبقة الطمي مختلفة تماماً
عنها فوقها ؟

لا يستطيع أى نهر على الأرض أن يرسب كمية من
الطمي تبلغ ثمانى أقدام : إلا إذا كان طوفان كبير قد
حدث . ومن المؤكد أن الحضارة التي وجدت تحت
طبقة الطمي قد غمرتها المياه تماماً ، وأن شعباً جديداً قد
بنى المدينة التي تعلو الطمي .

وفي الحال طافت بعقل وولى قصة الطوفان الكبير الموجودة في التوراة ، تلك القصة التي ظن البعض أنها أسطورة ، على حين آمن بها البعض الآخر ؛ وإن كانوا قد اعتقدوا أنها حدثت في زمان سحيق ، للدرجة يتعذر إثباتها . واقتنع وولى بأنه وجد الدليل على هذا الطوفان الكبير نفسه :

وكان المعروف أن قصة التوراة عن الطوفان الكبير مأخوذ بعضها من أسطورة سومرية أقدم من التوراة ؛ تقول الأسطورة السومرية « كل البشر قد تحول إلى طين . وأصبحت الأرض منبسطة كسقف البيت ، ولكن رجلا واحداً - هو نوح في التوراة - انتشلته الآلهة ليعيش » .

وقد عين وولى حدود منطقة الطوفان بوساطة دق المجسات إلى أعماق كبيرة في الأرض ، وتبين أن المياه غمرت مساحة تبلغ أربعمئة ميل طولا ومائة ميل عرضاً ، وهي بالطبع لم تغمر العالم كله كما تقول الأسطورة .

ولكن بالنسبة للشعب القديم في ذلك الوادى ، كان ما غمره الماء هو العالم بأسره .

ومما لا شك فيه أن طوفانا هذا مدى اتساعه ، لا يد أن يمحو حضارة الوادى محوآ تامآ . ومن المعروف أنه لم توجد حول عام ٤٠٠٠ ق .م . أجهزة رادار ولا طائرات هيلوكوبتر لتحذير الناس وإنقاذهم من الخطر . فمثل هذا الطوفان كان فاجعة مخيفة حقآ .

نستطيع أن نتصور شعور علماء الآثار وهم يهبطون مع هذه المجسات . . لهم في لحظة ، يقفون على عتية مدينة أور المذكورة في التوراة . وفي لحظة ثانية ، يمدون أيديهم ليلمسوا الطمي الذى خلفه الطوفان ، وفي لحظات أخرى يجدون أنفسهم وسط مدينة أور التى عاشت قبل الطوفان الكبير . إن أعرق سطح بلغه المنقبون ، شاهد مولد جنس من الناس غير معروف ، وشاهد موته أيضاً ، وقد عاش هذا الجنس قبل زماننا بسبعة آلاف سنة .

من المؤكد أن معظمنا لن يرى مدينة أور . فالسياح

يزورون دائماً الآثار في مصر ، وفي تشيشين اترا ، وفي كريت ، لأن كل ما تبقى من مدينة أور هو هذه الكتابات المسماة الغربية ، وأدوات الزينة المصنوعة من الذهب ، التي ازدانت بها بقايا عظام الموتى ، وبقيت كذلك فقط مجموعة من التلال يغطيها الآجر وسط رمال الصحراء . أما برج الزيجورات فقد سلبه الزمن بعض روعته وسلبه الناس ما بقي منه ، وعادت الشوارع والمنازل إلى سباتها الذي أيقظتها منه معاول الأثريين .

لكن ، لقد بقي للسومريين دليل على مجد خالد فيما عثر عليه في مدينة أور ، فهذا ولا شك يعطى صورة واضحة لهؤلاء القدامى الذين يدين لهم عالمنا الحديث بالكثير .

ونحن اليوم إذا كنا نقسم الساعة إلى ستين دقيقة ، والدائرة إلى ٣٦٠ درجة ، فإننا نستخدم النظام السومري في الحساب . ومعلوماتنا عن العقد والقبو والعمود ، إنما

ندين بها لهؤلاء البنائين القدماء . واختراع الكتابة
والعجلة ، ما هما إلا منحة أتت لنا من هذا الشعب
المفقود .

وهكذا ، نرى أن حضارتنا في حقيقتها أثر واستمرار
لحضارة شعوب قديمة .

الفصل السادس

لغز القلعة

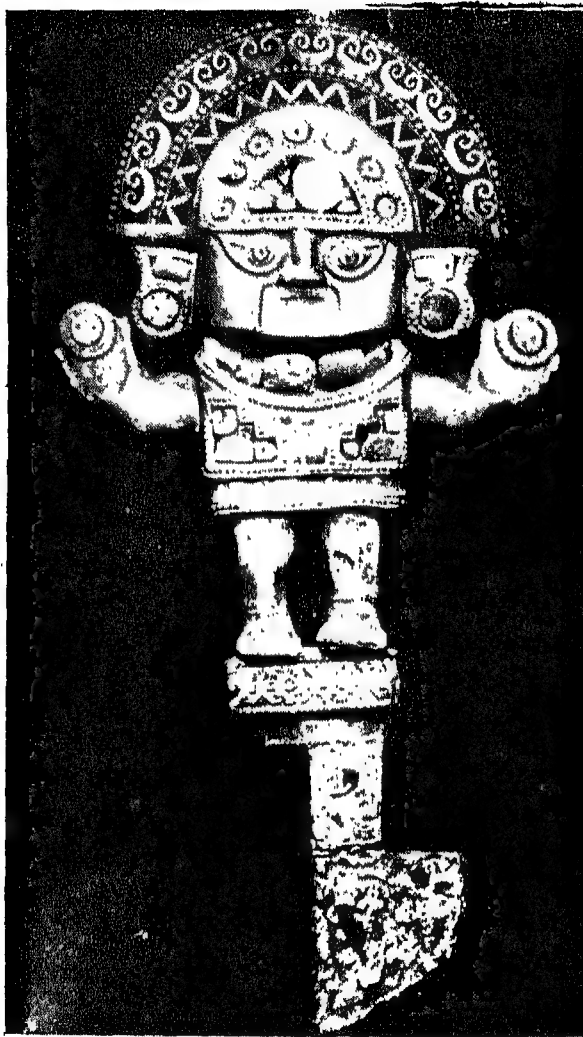
توجد في بلاد بيرو وفوق جبال الأنديز الشاهقة الارتفاع ، مدينة حصينة يحيطها الغموض . وقد ظلت مبانيها الحجرية المهجورة متعلقة بالهضبة الشديدة الانحدار مدة تزيد على ألف سنة ، قبل أن يفد عليها پزارو الإسباني . ولم يكن أى غريب يتوقع لها وجوداً منذ قرون عدة . ولم يبحث أحد عن هذه المدينة المفقودة سواء پزارو أو غيره ممن أتى بعده . ولم يعرف أحد مبانيها خلال القرون المتعددة سوى الطبيعة ، التي رأت أن تغطيها بستار كثيف من النباتات المدارية ، وتعاونت الجبال والغابات مع الطبيعة ، فأخفت معالم المدينة ، بل لقد محى اسمها من سجلات الإنسان ؛ وكل الذى بقى لنا ، بعض أساطير هندية قديمة كانت تهمس بقصة القلعة المنسية منذ زمن طويل .

وقد ترددت هذه الأساطير على ألسنة أناس اسمهم

الإينكا ، الذين بنوا إمبراطورية قوية واسعة جذبت إليها أطماع الإسبان . وقد قيل إن شعب الإنكا يملك قدراً كبيراً من الذهب لا يمكن تصوره ، حتى إن صحاف موائلهم وكوؤسهم صنعت من هذا المعدن النفيس ، الذي عرف عند الهنود باسم « دموع الشمس الباكية » .

وكانت الرغبة في الحصول على الذهب هي التي جذبت فرانيسكو پزارو إلى إقليم بيرو عام ١٥٢٥ . وسارت جيوش هذا الإسباني الفاتح ، في طرقات توجد تماماً تحت المدينة المختفية في الأنديز . وصانت قمم الجبال السر الذي تخفيه جيداً عن أعين الفاتحين . ومضت القرون قبل أن يشك أحد من الأجانب في وجود هذه القلعة القديمة المعلقة بين الجبال كعش الطير . وحتى ذلك الوقت كانت المدينة الحجرية المهجورة ، ترقد حاملة وهي بعيدة عن صخب المعارك الوحشية ، وحشرة أنفاس الموتى .

لم يكن پزارو يعرف على الإطلاق شيئاً عن عظمة الإمبراطورية التي حطمها . لقد كانت حدودها تمتد إلى مساحة واسعة ، كما ارتبطت أجزاؤها بمجموعة أفدة من



(شكل ١٩) تمثال ذهبي لأحد آلهة الأزتك

الطرق الممهدة . وكان عرض أحد هذه الطرق عشرين قدماً ، وطوله ألفى ميل تقريباً - أى قرب المسافة بين منبع النيل ومصبّه . وكان على بناء هذه الطرق في بعض الأجزاء أن يحفروا أنفاقاً في الجبال تخترق الصخر . وغالباً ما كانوا يصنعون من أفرع الكروم معابر للأنهار الواسعة ، وذلك في الوقت الذي كانت فيه طرق بيلاد متحضرة وقتلك تعرف باسم أوربا ، مبنية من الطين والحجر غير المثبت . ومع ذلك فلإن هؤلاء الأنكا « المتوحشين » مهدوا طرقاتهم البدیعة باستخدام أدوات مصنوعة من الحجر فقط .

أما إمبراطور ألانكا فقد عاش في قصر فخيم بمدينة كوزكو ، عاصمة الإمبراطورية . وقد عبده شعبه باعتباره الابن المقدس لإلههم الأسمی وهو « الشمس » . وكان هذا الابن إذا مات توضع مومياء على مقعد ذهبي في معبد الشمس مع مومياء باقي الأباطرة السابقين . وفي أيام الأعياد كانوا يخرجون مومياء أباطرتهم ذات التيجان الذهبية لعبادتها .

وكانت كلمة إمبراطور الانكا بمثابة قانون ، وله أن يتحكم في كل صغيرة وكبيرة في حياة كل فرد في إمبراطوريته الواسعة . فكان يخبرهم متى يتزوجون ، وأى الآلهة يعبدون ، وفي أى مكان يقيمون ، وبأى الأعمال يشتغلون . وكان يختار عدداً من رعاياه لحبك الغزل ونسج القماش . ويختار أسرعهم في الجرى لنقل الأخبار . ويحدد من يقومون بأعمال البناء أو التعدين أو الصناعة أو الزراعة ، ولا راد لقضاء الإمبراطور فيما يقضى .

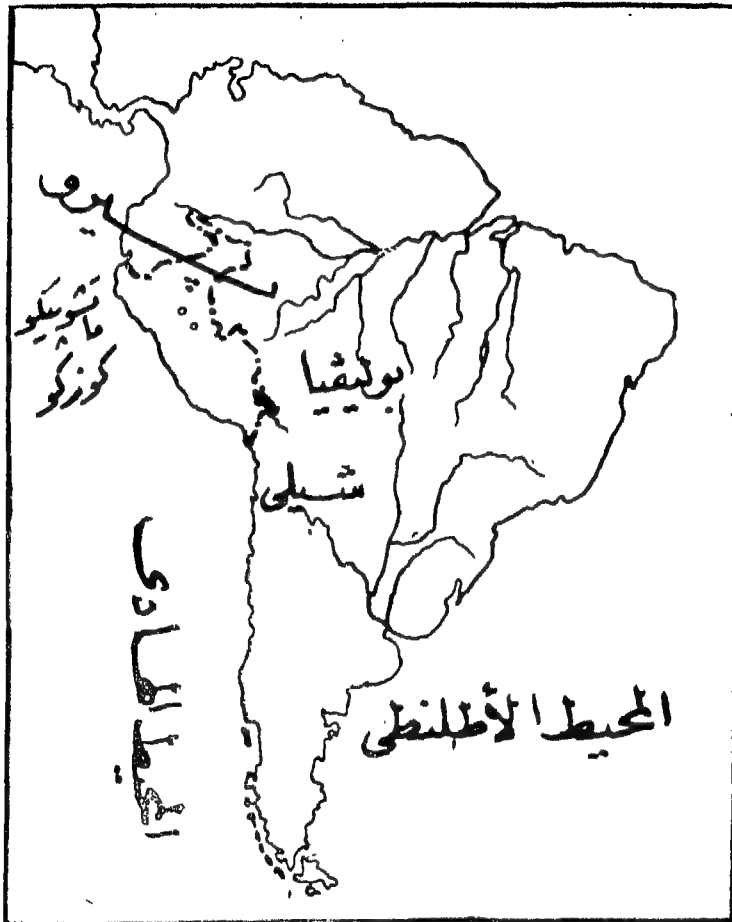
وكان لا يسمح لأى شخص بامتلاك الأرض ، لأنها كلها ملك للآلهة ، وكان الربع الأول من أى حصاد مخصصاً لكهنة الشمس . والربع الثانى يقسم بين المسنين والمرضى والأرامل واليتامى . والربع الثالث يبقى لسد حاجة الزراع ، أما الربع الأخير فيذهب للإمبراطور وموظفيه .

ولم يكن عند الانكا ماشية أو خيول ، كما هى الحال في المزارع الحديثة . فكانت حيواناتهم التى تحمل الأثقال

من نوع غريب مثل اللاما . وكانوا يدربون مئات الآلاف منها على العمل . كما كان وبرها العنقي يزودهم بالغزل المستخدم في صناعة الملابس . ولم يكن أولاد الشمس هؤلاء يستطيعون الحياة بدون هذا الحيوان الذي يقرب من الجمل .

ويختار الإمبراطور من الناس أصلحهم ليكونوا مهندسين ، وليبنوا الترع التي تحمل الماء إلى الحقول والمدن . وقد بنى هؤلاء أيضاً الطرق المرصوفة الممهدة التي ربطت كوزكو « بأركان العالم الأربعة » -- كما كانت تسمى بلادهم .

وكان الإمبراطور أو « الانكا الاوحد » كما كانوا يسمونه ، يستخدم هذه الطرق عندما كان يخرج إلى أركان العالم الأربعة ، في جولاته التفتيشية . وما من شك أنه كان منظرًا عجيبيًا ، إذ كان خدام الإمبراطور يكنسون الطرقات أمامه من التراب والحصى بصفة مستمرة ، في حين يحمل النبلاء المحفة الملكية المصنوعة من الذهب والفضة ، والمزينة بالجواهر الثمينة . وعلى هذه المحفة



(شكل ٢٠) بيرو ... مركز حضارة الانكا

يجلس أو يضطجع الحاكم العظيم في ارتياح . ويميزه عن الجميع حلقتان ذهبيتان كبيرتان في شحمتي أذنيه . وحيثما يمر الحاكم ذو الحلقتين الكبيرتين يتجمع رعاياه المخلصون على طول الطريق ويركعون له .

ونحن وإن كنا اليوم بغير حاجة إلى أن نعيش في ظل سلطان مثل سلطان هذا الملك ، إلا أننا لا نزال نعجب بالطريقة التي نظم بها إمبراطورية « الشمس » التي كان يحكمها . ومن المؤكد أن الحكام المحدثون لا يحسدون هذا الإمبراطور على انشغاله بتحديد العمل للملايين من الناس . وفي استطاعتنا أن نتصور المشاكل التي تنتج من اتساع حجم إمبراطوريته ، إذا علمنا أن جزءاً منها كان عبارة عن صحراء جرداء ، وجزءاً آخر عبارة عن مستنقعات في منطقة الوديان المدارية ؛ هذا إلى جانب جزء جبلي ثالث شاهق الارتفاع تكسو قممه الثلوج . وكان من الأمور الصعبة ولا شك أن يقرر أين تبنى الطرق ، وأين ترعى قطعان اللاما ، وأين تزرع الحبوب وسط كل هذه الاختلافات المناخية الكبيرة .

وقد احتاج الإمبراطور إلى قوائم مكتوبة لتذكره بكل هذه الأشياء التي يقوم على رعايتها . ولكن لما لم يكن الانكا يعرفون الكتابة فقد استبدلوا بها استخدام مجموعة من الخيوط المتعددة الألوان والمتعددة العقد . وكانوا يسمون هذه الخيوط « كيبو » . ونحن نعجب اليوم : كيف أن ثمانية وسبعين خيطاً ذات عقد وألوان مختلفة ، يمكن أن تكون ذات نفع كبير . فقد استخدمت الكيبو في الحساب واستخدمت كتقويم ، بل إنها استخدمت لتسجيل أحداث التاريخ الطويل . لإمبراطورية الانكا .

ويعتقد العلماء أن مجموعة الألوان المتعددة ، والخيوط المختلفة الأطوال ، وكذا مواضع العقد ، كلها أشياء لها معان محددة . وعلى أية حال فنحن لم نستطع اليوم قراءة الكيبو ، مثلما كان يفعل الانكا القدماء .

والتاريخ القديم لإمبراطورية الشمس هذه ، غريب جداً وساحر . فقد كان هناك هنود يعيشون في بيرو قبل أن تظهر هذه الإمبراطورية في الوجود . ولا يعلم

أحد اليوم اسم أجداد الانكا ، ولكن أحد العلماء سماهم
 شعب الأحجار الكبيرة ، مشتقا ذلك من أسلوب عمائرهم ،
 فقد كانوا يصنعون الجدران من كتل حجرية ضخمة
 قد تزيد أحيانا على أربعة عشر طنا . وعرف هؤلاء
 البناؤون القدماء كيف يوفقون بين بعض الكتل الحجرية
 وبعضها ، ورفعوا الأحجار الضخمة التي يبلغ وزنها
 وزن ثلاثة أفيال أو أربعة ، دون استخدام آلات الرفع
 التي نعرفها حديثاً . واستطاعوا بدون استخدام
 الأدوات المعدنية أن يقطعوا الكتل الحجرية على الشكل
 والحجم المطلوبين . وألصقوا الأحجار بعضها ببعض بدقة
 تامة ، لدرجة يصعب معها علينا أن ندخل بينها دبوساً .
 وعجزت الزلازل الشديدة المألوفة في هذا الإقليم عن أن
 تزعج الأحجار الضخمة عن مكانها .

وتقول أسطورة هندية قديمة إن مؤسس إمبراطورية
 الأنكا ، انحدر من سلالة « شعب الأحجار الكبيرة » .
 ويقال إنه بعد مولد المسيح بعدة قرون هاجمت قبائل
 متوحشة آتية من الجنوب شعب الأحجار الكبيرة وأرغمته

على الهرب إلى ركن بعيد في جبال الأنديز ، حيث بنى
له حصنا فوق قمم الجبال ، سمي « تمبوتوكو » أو
« المكان ذو النوافذ الكثيرة » . وهناك عاش الانكا
مئات السنين في أمان .

وبعد مدة تكررت القصة القديمة ، فإن شعب
تيمبوتوكو أخذ يقوى شيئاً فشيئاً ، وقرر أبناء الملك
الثلاثة أن الوقت قد حان ليتركوا ملجأهم ويخرجوا إلى
العالم ليفتحوا بلاداً جديدة . وألقى الأمراء الثلاثة تحية
الوداع على قومهم ، وخرجوا من تيمبوتوكو من خلال
ثلاث نوافذ كبيرة بالبناء المقدس ، واتجهوا إلى التل الذي
تشرق عليه الشمس .

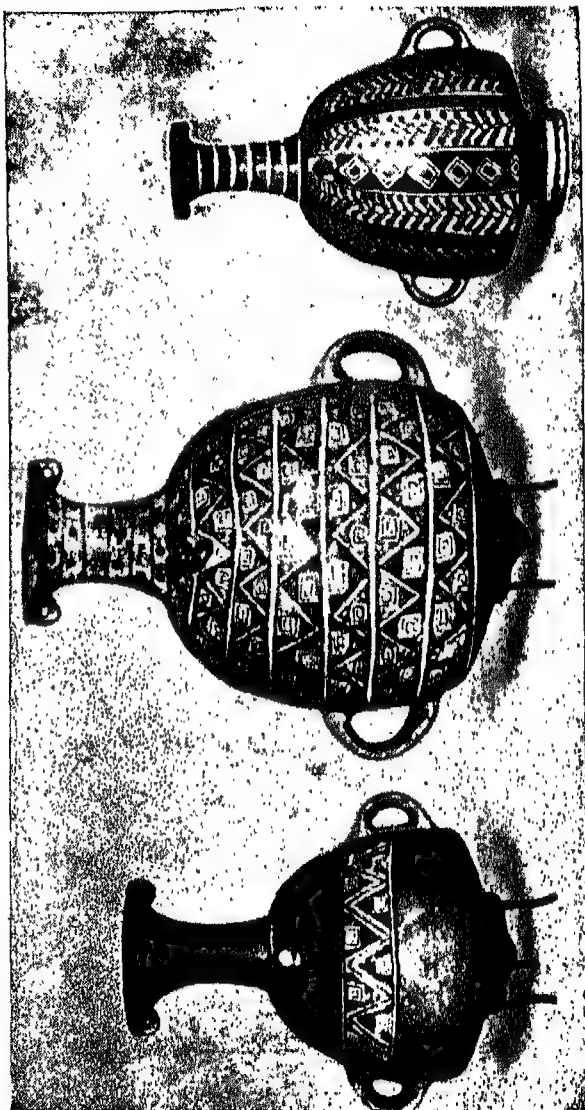
غزا الأمراء الثلاثة قبائل كثيرة وامتدت أملاكهم
جنوباً حتى شيلي ، وشمالاً حتى اكوادور ، وعرفت
هذه البلاد باسم إمبراطورية الأنكا ، وكان أول حكامها
منكو كاپاك ، أكبر الأمراء الثلاثة .

لكن تيمبوتوكو استمرت « مدينة مقدسة » باعتبارها

مسقط رأس الانكا الأوحـد . واحتفظ بمكان هذه المدينة سرّاً لا يعرفه الأجانب . وظلت كذلك حتى ضاعت مع ظلال الزمن كل المعلومات الخاصة بموضع هذه المدينة .

وشك العلماء المحدثون في وجود مثل هذا المكان ، وظنوا أن قصة القصر ذى النوافذ العديدة ، ليست سوى خرافة ابتكرت لتوضيح نشأة الانكا الأوحـد أو الإمبراطور . ولما لم يبتكر «شعب الأحجار الكبيرة» طريقة ما للكتابة ، فقد بدا أن حقيقة وجود تمبوتوكّو سوف تظل مجهولة .

ولكن بعد مرور أربعمائة سنة تقريباً من غزو پيزارو لأبناء الشمس ، خرج مستكشف أجنبي آخر إلى بلاد الانكا ؛ وكان المستكشف فى هذه المرة أستاذاً أمريكياً من جامعة ييل . لم يكن هذا الأمريكى يبحث عن الذهب ، ولكن عن المعرفة ، أو عن المعلومات الخاصة بإمبراطورية الشمس التى اندثرت منذ زمن طويل .



(شكل ٢١) أواني « الأثينا » الفخارية

اسم هذا الأمريكي هرام بنجهام ، وكان أمله أن يصل إلى المعلومات المنشودة عن طريق دراسة خرائب الانكا . وقد عرف بنجهام ، بطبيعة الحال ، أنه لا توجد آثار مكتوبة أو لوحات طينية تساعد على ما يريد ، وأن هذا التاريخ المعقد القديم يجب أن تستخلص مادته من دراسة بقايا المباني والأقشة والفخار والعظم .

وبدأ بنجهام رحلته مع رفيق واحد . والطريق الذى سلكاه كان قد مهدته الحكومة حديثا فوق معالم طريق هندي قديم . وقبل تمهيد هذا الطريق لم يكن فى استطاعة المستكشفين الوصول إلى ذلك الجزء من بيرو . وهذا الطريق يمر بوادى نهر أوروبامبا ، وقد عجب بنجهام ، إذ رأى نفسه يسير فى هذه المناطق الحارة . وكان إذا رفع بصره رأى من فوقه قمم الأنديز المتجمدة كالأبراج ؛ وهنا وهناك كانت تبدو بعض أحجار من بناء قديم يدل على أنه من صنع شعب انقرض منذ زمان طويل .

بحث الرجلان أياماً طويلة دون أن ينجحا فى الوصول

إلى شيء ما . وتوقفا مراراً ومرات عند المزارع والقرى
 ليسألاً عما إذا كان أحد يعرف مكان خرائب الانكا .
 وأخيراً قابل بنجهام فلاحاً هندياً قال إنه يعرف مكان
 بعض الأحجار القديمة ؛ وأشار إلى قمة جبل في الأفق
 البعيد . كان هذا الجبل الذي يدعى جبل ماتشوييكو ،
 يرتفع عشرة آلاف قدم . وقال الهندي إنه رأى خرائب
 كالتى يبحثون عنها على حافة الجبل وتحت قمته المدببة
 تماماً . وعرض عليهما أن يقودهما إلى المكان مقابل
 مبلغ كبير من المال . وكان الأجر الذى طلبه خمسين
 سنتاً وهو يعادل أجره اليومي العادي مرتين ونصف مرة ؛
 وقد تتبع بنجهام بأمل سرات ومزات مثل هذه
 القصص . ولكنه كان يجد في النهاية أن الخرائب المحكي
 عنها ، لم تقم إلا في خيالات قائلها فحسب . ومع ذلك
 فقد بدأ رحلته إلى قمة ماتشوييكو وكله أمل . وقادهما
 الفلاح الهندي خلال أدغال متشابكة إلى نهر أوروبامبا ؛
 وكانت الوسيلة الوحيدة للوصول إلى الضفة المقابلة هي
 التعلق بجسر مضطرب مصنوع من أربعة من جذوع

الشجر ، مربوط بعضها إلى بعض ، بوساطة أغصان الكروم .
وهكذا بدأت رحلتهم تصبح أكثر مشقة .

كانت الحافة التي يقودهم إليها دليلهم ، ترتفع ثمانية
آلاف قدم فوق سطح البحر ، أو ما يزيد عن ارتفاع
الهرم الأكبر ست عشرة مرة . أخذ الجميع يصعدون
الجلل عاليا ، وكانوا يستعينون على الصعود في الأجزاء
الشديدة الانحدار بالتشبث بأفرع الكروم المربوطة إلى
الصخر في سفح الجبل . وفي بعض الأحيان كانوا
يظلون معلقين من أصابعهم وهم يبحثون بحثون عن
موضع لأقدامهم . وكانت زلّة قدم واحدة تعنى سقوطهم
من تلك الارتفاعات المزعجة إلى شلالات نهر أوروبا
أسفلهم .

وفي وقت متأخر من بعد الظهر ، توقف الجمع
المتعبد اليائس ، في ظل غابة مدارية ، دون أن يظهر
أى أثر للخرائب التي قال عنها الدليل . والواقع أن بحثهم
كان عديم الجدوى ؛ لأنهم كانوا كالباحث عن إبرة
وسط كومة من القش .

وبينما هم جالسون للاستراحة ، أخذ بنجهام يتطلع
حواليه في وجوم ، وفجأة لمح بريق شيء أبيض بين
الحشائش الخضراء . وفي الحال زال تعب ، وقفز ليرى
ما عسى أن يكون هذا الشيء .

دفع بنجهام جانباً ، فروع الكروم وجذورها بلهفة
عظيمة ؛ ولمح في أسفلها حائطاً مبنياً من الحجر . كانت
كتله الجرانيتية الضخمة مقطوعة قطعاً جميلاً وملصقاً
بعضها فوق بعض بدون ملاط . وزادت دهشة بنجهام حين
رأى أن الجدران تغطي مساحات هائلة . ولا يكبرها في
الضخامة في بلاد بيرو سوى خرائب كوزكو .

والآن ، وبعد انقضاء زمن طويل ، آذنت قم جبال
الأنديز أن تبوح بسرها . وآن للعالم أن يعرف شيئاً عن
القلعة الغامضة ، التي تراكم عليها تراب السنين ، والتي بقيت
مبانيها الشاحخة مخفية زمناً طويلاً عن أعين الفاتحين الإسبان
والرحالة المحدثين ، والتي لم يخط في طرقاتها القديمة
أحد منذ أن غاب عنها بناتها المجهولون منذ زمان بعيد .
ولم يذكر الكتاب الإسبان القدماء ولا العلماء

المحدثون ، شيئاً عن إمكان وجود مثل هذا الحصن القابع فوق قمة الجبل . وكل ما كان هنالك من أخبار عن هذا الحصن هو مجرد أساطير قديمة .

وقرر هرام بنجهام أن يدعو هذه المدينة القائمة وسط السحب ، ماتشوييكو ، وهى المدينة التى أتاحت أعظم فرصة للكشف عن مدينة الانكا التى لم يعرفها غزاة بيرو من الإسبان .

وقد تكفلت بالاستكشاف هناك ، كل من الحجة الجغرافية الوطنية وجامعة ييل سنة ١٩١٢ . وكانت الصعوبات التى واجهتهما كثيرة جداً ؛ فكان لابد من نقل الأغذية والمؤونة عبر مناطق مدارية واسعة . شغلت نباتاتها كل جزء من سفح الجبل . ولم يكن الزحف وسط سيقان الغاب الهندى ، إلى جانب تسلق الصخور ، سوى طليعة العقبات .

وكان على الصاعدين فوق الجبل أن يكيّفوا أجسامهم لمناخ تنخفض حرارته ليلاً بمقدار ٥٥ درجة عنها نهاراً . وقد أفرغتهم الثعابين السامة ، والبراغيث والنمل المؤذى ، والوطاويط المصاصة ، والانهيارات الأرضية .

وكانت هذه الصعوبات كافية لتثييط همم من هم أقل تصميما ورغبة من أفراد المجموعة . أضف إلى هذا صعوبة التعامل مع العمال الوطنيين ، الأمر الذى زاد أعباء المكتشفين ثقلا .

وكان العمال الوطنيون بلداء لسبب واحد . فقد عرف بنجهم أن الهنود عندهم عادة مضغ أوراق الكوكا . وكما كان العمال الأمريكيون يأخذون فترة راحة لشرب القهوة ، كذلك كان هنود بيرو يأخذون فترة راحة لمضغ الكوكا . ولكن القهوة لم تكن مؤذية مثل الكوكا ، فهذه الأخيرة عبارة عن النبات الذى يؤخذ منه الكوكاين . وعادة مضغ أوراق الكوكا تقضى على الطموح ، وتبدد العزم وتميت الشهية . ورغم ما تحدثه فى الجسم والعقل ، فإن الهنود لا يستطيعون العمل مطلقا دون أن يتناولوها أربع مرات فى اليوم .

أخذت جماعة المستكشفين تعمل فى الكشف عن المدينة مع هؤلاء العمال ، الذين لا يمكن الاعتماد عليهم . واستلزم الأمر أن تمحى غابة بأكملها تماما ؛ وفى بعض

الأماكن كانت توجد أشجار ضخمة يبلغ سمك جذعها قديمين تنبت جذورها فوق منازل المدينة . وإخراج هذه الجذور المتشابكة يحتاج ولاشك إلى عناية كبيرة ، حتى لا يحدث أى ضرر بالمباني . والنباتات المدارية سريعة النمو عادة ، حتى إن العمال اضطروا إلى قطع الأعشاب فى ماتشوييكو ، ثلاث مرات فى خلال أربعة أشهر .

ولكن نتائج جهودهم كوفت بكرم عظيم . فقد كشفت ماتشوييكو عن قلعة كبيرة ، أو مدينة حصينة ، من المؤكد أنها بنيت لحماية شعبها من أى هجوم .

كان خط الدفاع الأول عن المدينة هو موقعها نفسه . فقد كانت ماتشوييكو مخفية وسط هضبات شديدة الانحدار ، ووديان تحميها الشلالات الخطرة ، التى تعترض مجرى نهر أوروبامبا . وبالإضافة إلى قوى الدفاع الطبيعية هذه ، بنى حولها حائطان كبيران ، بينهما خندق عميق .

فمن هم بناء ماتشوييكو ؟ ومن هم الأعداء الذين كانوا يخشونهم ؟ . . . كان مفتاح سر هذه المدينة الحصينة ! يمكن فى معبدها ، وهو معبد غريب حقاً .

بنى المعبد من ثلاثة جوانب فقط . واتخذت هذه الجوانب من كتل ضخمة من الجرانيت الأبيض ، ومقطوعة وملصقة بإتقان تام . أما الجانب الرابع من مبنى المعبد فقد حمل سقفه على عمود ضخيم هائل ، منحوت من كتلة واحدة من الحجر .

وكان السر يكمن في أحد جوانب هذا المعبد ؛ إذ كان هذا الحائط عبارة عن إطار لثلاث نوافذ ضخمة ، لم يعثر على بناءٍ مثلها في أى مكان آخر . ومن المؤكد أننا لم نسمع عن وجود نوافذ كبيرة مماثلة في المباني التي أقامها شعب الأحجار الكبيرة .

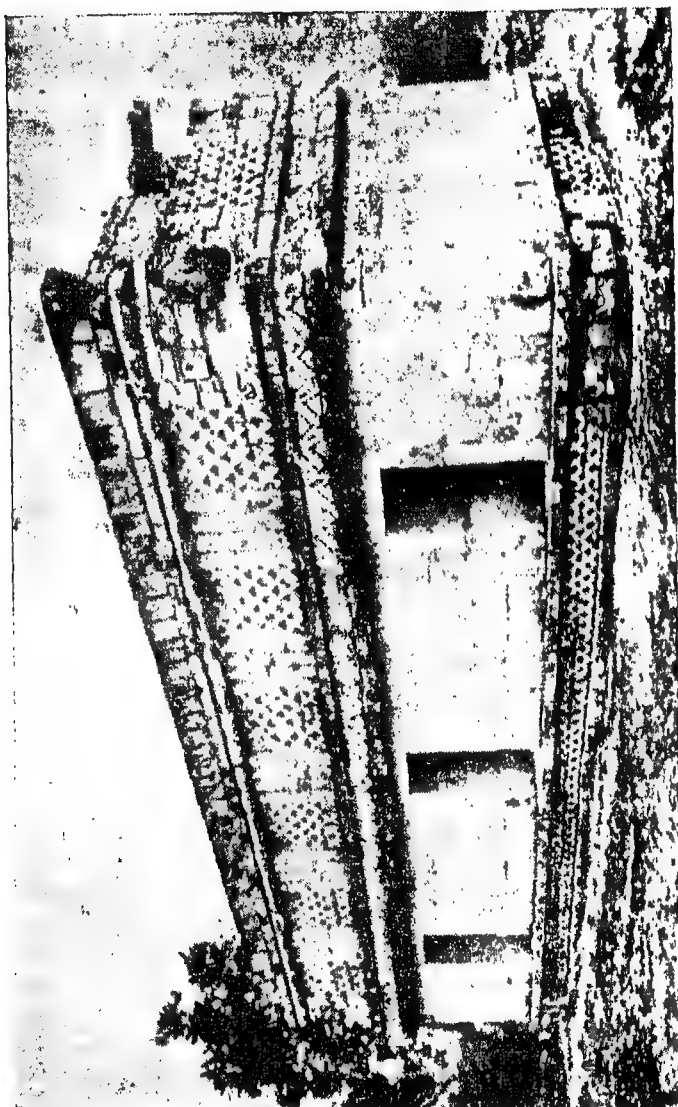
وبالنسبة لبنجهم كان المعبد ذو النوافذ الثلاث يعنى شيئاً واحداً ، وهو أنه عثر على تمبوتكتو : أى المكان ذو النوافذ العديدة الذى خرج منه مانكوكاباك وإخوته ، ليبدءوا تكوين إمبراطوريتهم العظيمة .

ومما قوى اعتقاد بنجهم في هذا ، أن المدينة كانت مخفية ومحصنة تحصيناً عظيماً . ألم تقل الأساطير القديمة

أن تمبوتكو كانت مبنية لتكون ملجأ ضد قبائل البرابرة المحاريين ؟ الحقيقة أن شعب الأحجار الكبيرة ، في ماتشوييكو ، اختار مكانا لا يمكن أن يهتدى إليه أعداؤه بدون دليل .

وقد وُجد في ماتشوييكو معبد آخر أكبر من الأول ، وربما استخدم مذبحه الضخم الهائل في حفظ موميات الموتى المقدسين ، الذين كانوا يخرجون جثثهم لعبادتها في بعض أعيادهم الخاصة . وكانت هذه الموميات التي تفتت منذ عهد طويل محفوظة يوما ما داخل بناء جميل تزين جدرانه النقوش المحفورة . وقد بنيت هذه الجدران من الصخر الذي تقوم عليه . أما مغارة الدفن الكائنة بأسفل الجدران ، فتوجد بها مصطبة لتستريح فوقها الموميات .

ولم تكن أجسام الانكا تحفظ مستلقية على الأرض مثلما كانت موميات قدماء المصريين ، بل كانت تدفن وهي جالسة القرفصاء وقد التصقت الركبة بالذقن . وكانت الأجسام تلف بأربطة عديدة من القماش وتحمز



(شكل ٢٢) المبد ذو النراقة الثلاث

بقدر كبير من الحبال ، ثم يحاط ذلك كله بلفة من الشباك . وفي أيام الأعياد كانت تزين هذه الموميات بأربطة جديدة وتوضع في المعابد ، وكأنها شهود وقفوا لينظروا مراسم العبادة في صمت .

وكان منزل الكاهن الأكبر متصلاً بالمعبد الكبير . والبناء مفتوحان على ميدان مقدس ، يقف فيه الكاهن كل صباح ، ليحيي الشمس المشرقة .

وفي الخريف حينما تبدأ الشمس رحلتها صوب الشمال ، يقيم الكاهن حفلاً دينياً كبيراً ، قرب صخرة كبيرة مرتفعة في الجبل . وقد عرفت هذه الصخرة المقدسة باسم « الحجر الذي تُربط إليه الشمس » وكان الناس يخشون أن تذهب الشمس بعيداً بحيث لا يمكنها العودة ثانية ، فتموت محاصيلاًهم وتعم المجاعة . لذلك كان على الكاهن أن يربط الشمس إلى هذا الحجر ليتأكد من عودتها في الربيع . وحينما تبدأ الشمس رحلتها جنوباً يعتقد الناس أن تعويذة الكاهن قد صحت .

ولم يكن في ماتشوييكو شوارع ، لأن المدينة بنيت

فوق منحدرات الجبل ، وكانت السلام المقطوعة في الصخر هي الشوارع . وقد زاد عدد هذه السلامة على المائة بين كبير وصغير . واحتوى بعض هذه السلامة على ثلاث درجات أو أربع فقط ، أما الشارع الرئيسي ، فقد اشتمل على مائة وخمسين درجة . وفي بعض الأحيان كان السلم يقطع كله من صخرة واحدة هائلة .

وكان الفضاء محدوداً جداً في ماتشوبيكو ، حتى لقد تلاصقت البيوت ذات السقوف الجمالونية ، بعضها إلى جانب بعض . أما بناؤها فكان من الحجر طبعاً ، وأما الملاط فلا أثر له إلا في الجانب الداخلى من الجدران . ولم يوجد أى دليل على استخدام الناس للأنضاد أو المقاعد على الإطلاق . ومع ذلك فقد وجدت في بعض المنازل صخور ضخمة ، موضوعة على الأرض ومفرغة من وسطها ، وهذه كانت تستخدم لطحن الحبوب . حقاً ما أسعد حظ زوجات القرون الخوالى اللاتى كن يملكن بعض الأجهزة في بيوتهن

والحقول كانت هي الأخرى مزدحمة ومتلاصقة في
 ماتشوبيكو . فهناك وفي سائر الجهات الجبلية الأخرى
 في بيرو ؛ نجد التربة صخرية وفقيرة ، وعلى ذلك فقد
 نقل الفلاحون الهنود القدامى أطنانا وأطنانا من غرين
 الوادى الغنى ، إلى المنحدرات الجبلية العالية ، وكونوا
 بهذا مدرجات صناعية ترتفع فوق التلال الواحد
 بعد الآخر ، كأنها درجات السلم ، ثم أحيط هذا الغرين
 بحوائط حجرية سائدة . وكانت بعض هذه المدرجات
 مائلة جداً ، حتى لقد احتاج الأمر إلى ربط نبات
 القرع العسلى إلى أفرع الكروم ، لتحفظها من التدحرج
 إلى أسفل الجبل .

وفي الوقت الذى اكتسح فيه البرابرة بلاد أوروبا ؛
 كان هؤلاء البنّاءون والفلاحون المهرة ، يعرفون كيف
 يتحكمون في مجارى الثلوج الدائبة من فوق قمم الجبال ،
 لاستخدامها في رى محصولاتهم . وكانوا يزرعون
 سبعين أو ثمانين نوعاً مختلفاً من النباتات . وفي مقدمة
 أغذيتهم الرئيسية صنف من الخضار نسميه خطأ :

البطاطس الايرلندية . ولم يعرف الأوروبيون البطاطس مطلقاً ، قبل أن يحضره الإسبان من بيرو في القرن السادس عشر . ولم يدر بخلد هؤلاء الإسبان أن الذهب والجواهر التي أخذوها من الانكا لم تكن شيئاً يذكر بالنسبة لبني الإنسان ، إلى جانب البطاطس ، ذلك النبات البسيط .

إن الناس في الولايات المتحدة يفخرون اليوم بالأعمال الهندسية التي يقيمونها في صحراواتهم الغربية . ومع ذلك فقد عرف «شعب الأحجار الكبيرة» ، قبل أن يكشف كولمبس أمريكا بسنوات طويلة ، كيف يحول سفوح الجبال التي لا نفع فيها إلى حدائق سهلة الرى غنية بالنباتات . ولا تزال تستخدم في أمريكا الجنوبية حتى اليوم ، آلاف الأفدنة من نوع هذه الحقول التي خلقتها يد الإنسان . ولا يصدق الهنود المحدثون أن أجدادهم هم الذين بنوا هذه المدرجات البديعة ، وهم يعتقدون أنها وجدت بفعل بعض القوى السحرية .

لقد كانت الحدائق المعلقة في بابل لإحدى عجائب الدنيا القديمة ، ثم ذبلت وماتت منذ ثلاثة آلاف سنة .

لكن حدائق بيرو المعلقة لا تزال توثق ثمارها من أجل
السلالة الباقية إلى اليوم من نسل بناتها .

ولما انتهى بنجهام ومن معه من الكشف عن المباني
والسلام والمدرجات في ماتشوبيكو ، اتضح لهم أن المدينة
سكنها أقوام ذوو حضارات متعددة . فقد وجدت المباني
من فترتين ، لكل منها أسلوب معمارى مختلف .

وتنسب مباني أقدم الفترتين لشعب الأحجار الكبيرة .
فقد استخدم هذا الشعب كتلا ضخمة من الجرانيت
الجليد القطع ، حتى إنه لم يحتاج إلى ملاط لتثبيتته في مكانه ،
ولا بد أن هذه المباني الجميلة قد اكتملت خلال
عدة أجيال .

أما مباني الفترة الثانية ، فقد جاءت متأخرة قرونا عدة
عن مباني الفترة الأولى . ولم تكن مباني الفترة الثانية
جيدة كالأولى . فالأحجار خشنة أو أصغر حجما . وهي
مربعة في قطعها ، ومثبتة بعضها إلى بعض بالملاط ، ويحتمل
أن هذه الأحجار غطيت بطبقة رقيقة من الملاط . وقد
تمت هذه الأعمال على نحو سريع ، حتى يبدو أنه كان

ثمة حاجة إلى عدد كبير من المباني في وقت قصير .
كذلك كانت بقايا الخزف والنسيج في هذه الفترة المتأخرة
أقل جودة من حيث صناعتها .

تُرى إذن من يكون بناء ماتشوبيكو المتأخرون ؟ .
ولماذا بنوا بهذه السرعة ؟ : . . ولماذا بقي مكان هذه
المدينة الجرانيتية سراً طوال هذه القرون العديدة ؟

لقد وجد بنجهام في الهياكل العظمية الصامتة في
ماتشوبيكو مفتاح اللغز الثاني لهذه القلعة .

إن عظام موتى شعب الأحجار الكبيرة ، وهم الهناة
الأصليون ، قد بليت منذ زمن طويل ، بسبب المناخ
المدارى الرطب . ولم يبق سوى موميات السكان المتأخرين
في ماتشوبيكو ، بعد أن تحلل اللحم الجثث وأربطة
الموميات .

ولاحظ العلماء بعد دراسة هذه الموميات حقائق
غريبة جداً ، من ذلك أنهم وجدوا اثنين وعشرين
هيكلًا عظمياً فقط للرجال ، من بين الهياكل السبعة

والأربعين والمائة التي كشفت . وتدل هياكل هؤلاء الرجال على أنهم متقدمون في السن . ولم يظهر بهياكلهم العظمية أى أثر لجراحات حربية ، أو لعمليات جراحية في جماجمهم ، وهى العمليات التى تدرس عليها الآنكا كثيراً . وبناء على هذا فلم يكن هؤلاء الرجال من المحاربين .

أى نوع من الأماكن إذن كانت مدينة النساء والرجال المسنين هذه ؟

لقد فكر بنجهام فى جواب طريف لهذا السؤال ، وهو أنه لما غزا الإسبان بيرو حاولوا القضاء على الدين القديم بقتل الكهنة والكاهنات . وكانت الكاهنات يخترن من أنبل الأسر فى الإمبراطورية ، ويدربن منذ الطفولة الأولى على خدمة المعبد . ولم يكن عند الآنكا أعز من عذارى الشمس هؤلاء . وقد قتل الإسبان بعضاً منهم وأسروا بعضاً آخر . ولكن معظمهن هرب إلى إحدى قلاع أجدادهن ، على نحو ما تقول بعض الأساطير القديمة ، وهناك أحيان عبادة الشمس . وظل سر

المدينة المقدسة محفوظا في صدر شعب الانكا ، حتى .
لا يغدر أحد بعدارى الشمس .

ولم تؤخذ هذه القصة مأخذ الجد ، مثلها في ذلك .
مثل سائر الأساطير القديمة ، حتى جاء رجال الآثار
فأماطوا بمعاولهم اللثام عن حقيقتها . وها نحن أولاء
نرى الآن في مخلفات مدينة ماتشوبيكو من المباني
والعظام ، البرهان على صدق الأسطورة القديمة ..
فالمدينة مبنية فوق بقايا قلعة لا تزال موجودة ، على نحو ما ؛
تذكر الأسطورة ، كما يبدو من عظام موتاهم أنها فقط
لنساء ورجال مسنين . وهؤلاء بالتأكيد هم كهنة وكاهنات
الشمس .

وخلال القرون مرت جيوش الإسبان الفاتحين .
وجماعات فلاحي بيرو المحدثون قريبا من هذه المدينة
المخبوءة بأميال قليلة ، ومع ذلك فلم يخطر ببال أحد أن
ثمة مدينة في ذلك المكان الذى تعاون على كتم سره كل
من الطبيعة والإنسان . ولما مات كل الذين يعرفون قصة

هذا المكان ، حافظت قمم الجبال على كتمان سر الأطلال التي بينها .

وأخيرا ... أعاد رجال الآثار كشف المدينة الغامضة القابعة وسط السحاب . ونظر بنجهاً إلى المدينة فتصورها مسرحاً مثلت عليه قصة قديمة ، وكان الفصل الأول من هذه المسرحية ، هو مجيء شعب الأحجار الكبيرة ، بعد مولد المسيح ببضعة قرون ، لينبؤوا ملجأً خفياً يحتمون فيه من بأس أعدائهم . أما الفصل الثاني فهو رحيل مانكوكاباك من المعبد ذي النوافذ الثلاث عام ١١٠٠ م . لينبدأ تكوين إمبراطورية الشمس الواسعة . وأما الفصل الأخير ، فهو مجيء عذارى الشمس حول منتصف القرن السادس عشر ، ليختبئ في ذلك المكان الأمين . وبموتهن أسدل الستار نهائياً ، ولم يرفع ثانية قبل مرور ثلاثمائة وخمسين عاماً .

الفصل السابع

المدينة الذهبية

في صبيحة يوم عيد الميلاد من عام ١٨٢٩ ، وفي قرية من قرى ألمانيا ، كان طفل في السابعة من عمره يجلس في كرسيه ومعه هديته المفضلة . إنها كتاب في التاريخ تزينه صور جميلة لأشياء حدثت منذ سنين طويلة في أماكن بعيدة عنه . وكانت أكثر هذه الصور استثارة للطفل رسماً يبين سقوط قلعة طروادة القديمة .

وفكر الصبي أنه حينما يكبر لابد أن يذهب ليرى بنفسه المكان الذي كانت توجد به بوابة طروادة الضخمة وجدرانها العالية . ولابد له أيضاً من أن يخطر فوق الأرض التي خضبتها يوماً ما دماء اليونانيين وأهل طروادة الذين تحاربوا مدة عشر سنوات .

كان والد الطفل الصغير ناظر مدرسة القرية . وقد أخبر ابنه أنه من المحال أن يزور طروادة ؛ إذ لا يوجد في الحقيقة مكان اسمه طروادة ، ولم يحدث قط شيء

اسمه الحرب الطروادية ، وأن هذه الأشياء لم توجد
إلا في خيال الشاعر اليوناني العظيم هومر .

وكان ناظر المدرسة كثيراً ما يقرأ لابنه أشعار إلياذة
هومر عن الحرب بين طروادة واليونان . تلك الحرب
التي ظل الناس من جميع شعوب العالم ، ولمدة ثلاثة آلاف
سنة تقريباً ، تستهويهم فيها قصص المحاربين ذوى الدروع
الذهبية ، والعربات التي تجرها الخيول المسحورة ، والآلهة
التي تستطيع أن تظهر في أشكال آدمية . ولكن القصيدة
في نظره لم تكن سوى خرافة ، كما كان علماء التاريخ
لا يقرون أبداً وجود مدينة تسمى طروادة :

غير أن الصبي الصغير واسمه : هينريش شليمان ، رفض
أن يتخلى عن حلمه ، وكان يحس أن المؤرخين على
خطأ ، وأن طروادة قد وجدت فعلاً ، وسوف
يجدها يوماً ما ، ويثبت للعالم كله أن أشعار هومر الرائعة ،
حقيقة لآخيل :

وكان كلما نظر إلى الصور في كتابه ، ازداد تفكيره
في الحوادث التي حدثت منذ أزمان طويلة ، وعاودته قصة

اختطاف الفتى الرشيق باريس بن الملك بريام ملك طروادة ، لزوجة أحد نبلاء اليونان ، ويدعى منلاوس . وكانت هذه السيدة ، واسمها هيلين ، أجمل نساء عصرها . ويصف هومر إبحار سادة اليونان عبر بحر إيجه ، ليأخذوا بثأرهم من طروادة مدينة الأمير باريس ، ويقول إن قائدهم كان أجمنون ، ملك ميسيناى القوى .

كان هنريش شليمان يحب قراءة أخبار الحروب المثيرة بوجه خاص ، فأخذ يقرأ مرات ومرات كيف أن « آخيل » أشجع شجعان اليونان ، تحدى هكتور أمير طروادة فى مبارزة شخصية . ولبس آخيل الدرع الرائعة التى أعدها له أحد الآلهة ، وحينما رآه هكتور تقدم إليه بدرعه السحرية اللامعة تحت أشعة الشمس . ولكن قلبه كان قد امتلأ بالرعب فهرب ، وتبعه آخيل القوى ودار وراءه حول أسوار القلعة . وأخيراً اضطر هكتور لمواجهة اليونانى آخيل الذى قتله وربطه من عقبيه إلى عربته ، وجره على الأرض ، وعاد به إلى سفن اليونانيين . ثم هزمت طروادة أخيراً بحيلة بارعة مأكرة . فعندما

أيقن اليونانيون أنهم لن يستطيعوا هدم أسوار المدينة ، فكروا في عمل حصان ضخم من الخشب ، مفرغ من الداخل ، واختبأ في جوف هذا الحصان عدد من أحسن محاربيهم . ثم تظاهر اليونانيون بالتخلي عن الحصار وتركوا الحصان الخشبي خارج أبواب المدينة ذات مساء كهدية منهم . وفي الصباح التالى ظن أهل طروادة أن هذا بداية السلم ، وسروا لذلك وأخذوا الحصان الخشبي إلى داخل المدينة واحتفلوا به احتفالا مبهجاً في المساء . وبينما هم نائمون تسلس المحاربون اليونانيون من داخل الحصان ، وفاجأوا أهل طروادة بأخذ المدينة .

ويقول شليمان أخيراً ، إنه كان حينما ينظر إلى صورة طروادة ، كان يخطر بباله أنه سوف يكشف في يوم من الأيام تلك المدينة المجهولة . ليقول العلماء ما يشاءون من أن قصة طروادة لا تخرج عن كونها مجرد أسطورة . أما هو فلم يشك مطلقاً في أن طروادة مدينة حقيقية ، واعتقد أن هكتور وباريس وبريام وأجمنون كانوا موجودين بلحمهم ودمهم ؛ ولن يستطيع أحد أن يزعم هذه العقيدة من نفسه .



(شكل ٢٣) قناع إجمنون

ولم يقدر لشليمان أن يزور اليونان قبل مضي تسعة
وثلاثين عاما من تاريخ عيد الميلاد ذاك ، الذي كان
حدثا هاما في حياته ؛ ولكن حياته حتى ذلك الوقت ،

لم تكن بحاجة إلى المغامرات . لقد بدأ شليمان مفلسا ، واختار لنفسه أن يكون تاجراً . وفي خلال هذه السنوات مرّ في سلسلة من التجارب المحزنة ، فقد ارتطمت به السفينة مرتين ، ونجا فيهما . ثم نجا بأعجوبة من زلزال سان فرانسيسكو ، ثم تنحى في زى حاج مسلم ، وقصد مدينة مكة ، ولو عرف أمره لتعرض للمخاطر .

وفي أثناء كل هذه المغامرات كان شليمان يعمل جاهداً ليعلم نفسه ، فتعلم اللغة اليونانية القديمة والحديثة ، كما تعلم سبع عشرة لغة أخرى . وقد علم نفسه بنفسه معظم هذه اللغات ، وكان غالباً ما يحسن اللغة الجديدة التي يتعلمها بعد ستة أسابيع فقط .

ونزل شليمان ، وهو في السادسة والأربعين من عمره ، أرض بلاد اليونان لأول مرة في حياته ، وذات يوم جلس في قرية صغيرة يقرأ لأهلها بلغتهم ، بعضها من أشعار هومر . وكانت لحظة مثيرة بالنسبة لشليمان ، حتى إنه بكى ، وبكى معه أحفاد هؤلاء الأبطال القدماء .

وأخيراً رحل شليمان إلى البقعة التي قامت عليها يوماً ما ، مدينة طروادة . وعلى الرغم من أن معظم العلماء وقتذاك كانوا لا يعتبرون طروادة سوى مدينة أسطورية ، إلا أن البعض منهم اعتقد في وجود مدينة بهذا الاسم فيما مضى من الأيام . وظن هؤلاء أنه إذا صح اعتقادهم ذلك ، فالأرجح أنها كانت موجودة قرب قرية بونارباشى الحديثة .

وصمم شليمان على أن يعيد قراءة أبيات خاصة من الإلياذة ثم يختبر التل الذى يعلو قرية بونارباشى ، ليرى مدى اتفاق الوضع مع الوصف الموجود فى القصيدة . وسار شليمان ، كالشيخ الصغير ، والكتاب فى يده ، ينظر إلى الأرض من خلال منظاره متتبّعاً وصف هومر . كانت قلعة طروادة تقع فى وسط سهل كبير يبعد عن الشاطئ ، وعلى مسيرة بضع ساعات منه . وكان المحاربون اليونانيون يجيئون ويروحون من مكان المعركة إلى مرسى سفنهم . وكانوا أحياناً يقومون بهذه العملية عدة مرات فى اليوم الواحد . وبعبارة تامة ، أخذ شليمان يقيس بخطاه المسافات



٢٤ - خريطة بلاد اليونان

من بونارباشي ، ويحسب الزمن الذي تستغرقه تلك الخطى .

ورأى شليمان أنه لو كان وصف هومر لليوم الأول من المعركة دقيقاً ، ولو كان موضع المعركة ، كما يقال ، في بونارباشي ، لكان على المحاربين اليونانيين أن يسيروا مسافة اثنين وخمسين ميلا في تسع ساعات ، وهذا مستحيل .

وعاد شليمان ثانية إلى الإلياذة يقرأ الجزء الخاص بفرار هكتور من آخيل : فقد قال هومر : إن بطل طروادة دار أثناء محاولته الفرار ، ثلاث مرات حول أسوار القلعة : ولكن لما حاول شليمان أن يعيد تمثيل هذا المنظر وجد أن عليه أن يزحف على يديه ورجليه ، بعض الوقت ، فوق طريق منحدر ، وفي اتجاه مضاد . وعلى هذا فلن يكون هكتور قد جرى بكل سرعته حول تل بونارباشى .

والاحتمالان القائمان للإجابة عن هذا المشكل هما : إما أن يكون هومر مخطئاً ، وإما أن طروادة القديمة لم تكن في موضع بونارباشى الحديثة . ولم تكن هناك فرصة لشليمان أن يختار ، لأن هومر عنده لا يخطئ ، بل العلماء هم المخطئون : وكان لا يزال هناك تل كبير آخر في ذلك المكان ، وكان هذا التل الأخير أقرب إلى البحر نوعاً ، ويسمى حصار لك ومعناها « القصر » : وكانت قمة تل حصار لك مسطحة ومغطاة بقطع مكسورة من الفخار القديم . واختبر شليمان انحدار ذلك التل : ورأى أن في إمكانه

هكتور أن يدور حوله بسهولة وبأقصى سرعة . هذا بالإضافة إلى أنه على مسيرة ساعتين ونصف ساعة من البحر ، مما يجعله أقرب من بونارباشى ، وإذن فمن المؤكد أن اليونانيين كانوا يستطيعون الذهاب إلى مكان المعركة والعودة إلى سفنهم ثانية .

وفكر شليمان وقدر . وقرر أن مكان هذا التل يتفق مع وصف الإلياذة . واقتنع تماماً أن هذا المكان لا بد أن يكون « طروادة القديمة » . والنتيجة . أنه لن يستمر طويلاً في عمله كتاجر . فسوف يتخلص كلية من هذا العمل . ويوجه مستقبله وجهوده نحو تحقيق أحلام طفولته .

ولم يستطع التاجر ، الذى تحول إلى عالم آثار ، أن يحصل على تصريح للتنقيب في تل حصارك قبل عام ١٨٧٠ م . وفي خلال عامين من انتظار تحقيق هذا الإذن ، رأى شليمان أن الوقت قد حان للزواج . ولما كانت كل أحلامه مرتبطة باليونان ، فقد آثر أن تكون زوجته يونانية أيضاً . إن المسألة بالنسبة إليه مسألة إيمان ، وهو

يعتقد أن « لغة الآلهة » هي اللغة اليونانية وأنه لن يكون سعيداً إلا إذا عاش على أرض اليونان .

وكتب شليمان إلى أحد أصدقائه ، يسأله المعونة في اختيار زوجة مناسبة له ، وقال إنها لابد أن تكون جميلة وصغيرة ، وأن تحب أشعار هومر .

ما أغرب الشروط التي يتطلبها زوج في زوجته . ومع ذلك فقد وفق شليمان إلى الفتاة التي تتوافر فيها هذه الشروط . كانت صوفيا فتاة يونانية جميلة ، في السابعة عشرة من عمرها محبة لأشعار هومر . وعاشا : هي وشليمان — وعمره ، إذ ذاك سبعة وأربعون عاماً — زوجين سعيدين إلى أن مات شليمان بعد ذلك بعشرين عاماً .

وفي عام ١٨٧٠ ، بدأ أول معول يقلب الأرض في حصارك . ووجد شليمان حائطاً رومانياً بالقرب من سطح الأرض ؛ ولكن هذا لم يكن يهمه كثيراً ، إذ أن اهتمامه كان ينحصر في محاولة العثور على أسوار طروادة : كان تل حصارك الضخم يرتفع مائة قدم فوق

مستوى الوادى : والآن . . بماذا كوفئ شليمان بعد
انتظاره السنين الطوال لتحقيق الآمال ؟ وأى شىء سوف
يظفر به فى أعماق ذلك التل ؟

لقد استأجر تاجرنا السابق ، مائة رجل ، وزودهم
بالمعاول والمجاريف . ولكن أين يبدأ تنقيبه عن مدينة
طروادة الغنية ، الأسطورية ؟ قابلت شليمان نفس المشكلة
التي قابلت تيلور ، حينما بدأ ينقب فى تل المقيّم بمدينة أور .
فلم تكن هناك أساليب علمية تتبع فى التنقيب ، وكان
شليمان نفسه هاوياً لا عالماً ، ولم تكن له قواعد ليسير
عليها ، بل كان رائده الوحيد هو أشعار هومر .

صمم شليمان على حفر أخدود مستقيم ، عرضه مائة
قدم فى قلب التل . وكان ينقل كل ما يكشفه بعيداً على
عربات تجرها الثيران أو فوق ظهور الجمال . وحينما
أعجزته قسوة الملاريا ، قامت مكانه زوجته صوفيا ،
وأخذت توجه العمال وتعمل بينهم ثمانى ساعات يومياً .
لم يسفر الموسم الأول عن نتائج ذات قيمة ، فقد
عثر على بعض أدوات حجرية ، وبعض قطع من الفخار

تزينها رسوم رعوس بومات ، وبعض الكتل الحجرية الكبيرة . ولكنه لم يعثر على شيء يشبه وصف هومر للمدينة العظيمة ، فلم يجد أبراج مراقبة ، ولا حوائط متينة ، ولا بوابات كبيرة .

وفي إبريل التالي بدأ هينريش شليمان وزوجته صوفيا يعملان ثانية بأمل جديد . فأخرجت المعاول أدوات حجرية أخرى ، وأنواعا من الفخار الرديء . ثم كشف ركن حائط كانت أحجاره مبنية بغير ملاط .

وقال شليمان : « جميل جداً أن تظفر يداى بالمدينة . . لأنها لا بد أن تكون محفوظة كما هي » .

بدأ شليمان يزداد قلقا وارتباكا ، إذ وجد على ارتفاعات مختلفة أجزاء من جدران ومبان أخرى . وكان واضحاً أن جيلا وراء جيل كان يبني في موضع حصارك . فقد تكون التل من مدينة فوق مدينة ، ومن طبقة فوق طبقة ، حتى أن شليمان عد منها ست طبقات منفصلة . لكن أى هذه الطبقات تكون طروادة التى ذكرها هومر ؟ وأين الدروع الضخمة وسيوف الحرب التى استخدمها المحاربون

القدماء ؟ وأين حلى النساء وجواهرهن ؟ وأين كنوز الملك بريام التى وصفها الشاعر بالتفصيل الدقيق ؟ وأين أبراج طروادة الضخمة ؟

لم تكن خمسة شهور من العمل الجاد كافية للكشف عن كل هذه الأشياء . فلم يظهر سوى قطع من الفخار أو الجدران ، ومن وقت لآخر كانوا يجدون بعض الأباريق الجنائزية ، أو الحراب النحاسية ، ومع ذلك فقد استمر شليمان يحفر ويحفر .

ولقد كتب يقول : « أنا سعيد كأتى ملك ، مادمت أستطيع أن أفرغ تماماً لتحقيق أسمى العظم ، ولن أرتاح حتى أتم هذا العمل . . . »

وفى مايو عام ١٨٧٣ م بدأ الحفر من جديد فى الطبقة الثانية من قلب التل . وسمى شليمان هذه الطبقة : طروادة رقم ٢ . وظهرت له آثار حريق كبير فى كل مكان ، حين كشف عن بوابتين ضخمتين وجدران سميكه هائلة ، لوتحتها النيران .

وأخيراً خالط شليمان إحساس بالعثور على طروادة وحوائطها ؛ فالبناء الضخم القريب منه لا بد أن يكون قصر الملك بريام ، ولا بد أن تكون هذه هى القلعة التى وصفتها الإلياذة .

اهتز كيان شليمان ؛ فقد كانت هذه أروع لحظة فى حياته . إنه استطاع أن يحيل الخرافة إلى حقيقة . وأن يخرج أبطال وبطلات هومر من صفحات الإلياذة إلى مسرح الحياة ، نساء ورجالا حقيقيين .

وكان استيوائه لشيء واحد فقط ، وهو أن هومر وصف كنوزا رائعة لم يصادفها شليمان . كما أن المدينة لم تكن من الكبر بالقدر الذى توقعه . وأحس شليمان أن هومر قد بالغ قليلا ، ليجعل قصته أكثر روعة . لكن على أية حال يكفى أن العالم عرف الآن أن طروادة مدينة حقيقية وموجودة . كان من المقرر أن يتوقف العمل فى منتصف يونيه سنة ١٨٧٣ م ، حين شعر شليمان أن مهمته قد انتهت .

وفى الرابع عشر من يونيه كان هينريش وصوفيا.

يقفان جنباً إلى جنب بجوار « قصر بريام » يراقبان
 جموع العمال وهم يحفرون على عمق ثمان وعشرين قدماً
 تحت مستوى سطح الأرض . ولم يكن أحد يتوقع الظفر
 بشيء هام في ذلك اليوم الأخير . إذ الحقيقة أن
 وقوفهما لم يعد أن يكون مراقبة مألوفة للعمال .

وفجأة .. حلق شليان في شيء نحاسي لم يتم رفع
 التراب عنه بعد . ولمح بجواره بريق شيء آخر ؛ شيء
 وسط أتربة الخندق يعكس أشعة الشمس . ولم ير أحد
 مآراه . وفكر في الحال في كنوز طروادة : ترى ..
 أيمكن هذا المعان ذهباً ؟

وأمر شليان صوفيا أن تذهب وتنادي العمال بالكلمة
 التركية التي تعني حلول وقت الراحة ، وهمس في أذنها
 قائلاً : « قولي لهم إن اليوم عيد ميلادي ، وإنني لم أتذكر
 ذلك إلا الآن فقط . وإن كل واحد منهم سوف ينال
 أجر يومه كاملاً دون أن يعمل » :

سر الرجال لهذه الإجازة غير المنتظرة ، وأسرعوا
 جميعاً إلى مغادرة العمل .

وقال هينريش لزوجته : « اذهبي أنت سريعا
وأحضري شالك الأحمر » وبدأ هو يحفر بنفسه . كان
عليه أن يرفع طبقة من الرماد الأحمر ، سمكها خمس
أقدام ، وأن يحطم بمعوله حائطا لا يقل عن ذلك
سمكا . ورغم أنه لم يكن في حالة صحية تمكنه مما يريد ،
إلا أن الانفعال أكسبه كثيراً من القوة .

وأخيراً ، وبسكين كبيرة ، أخذ يستخرج من
التراب أشياء ذهبية ، الواحد بعد الآخر ، وأخفى هذه
الأشياء بسرعة في شال صوفيا دون أن يفحصها .
وعاد الاثنان إلى كوخهما وأغلقا عليهما بابه .

وهناك في الأمان ، بعيداً عن الأنظار ، أخرجوا
الكنز الذهبي ، وإذا هو يحتوى على تيجان وخواتم
وعقود وأقراط وأزرار ، كلها من الذهب ، وكان
عددها في الحقيقة يقرب من تسعة آلاف قطعة .

لا بد أن هذا هو كنز بريام ، الذي كان هومر
وحده هو الذي قاد سليمان إلى مكانه . وهكذا عثر في

اليوم الأخير من موسم الحفر على الكنز الأسطوري ،
وأمسك بيديه الذهب الذى حلم به منذ أكثر من خمسين
سنة . وحينما لف رأس صوفيا بعصابة ذهبية وألبسها
العقود والأقراط ، أحس بكامل شعوره أنها حلى فتاة
أخرى يونانية جميلة هى هيلين ، التى نشبت من أجلها
حرب طروادة .

قد يبدو غريبا أن نصدق أن هاويا مثل شليمان ،
يعثر على أشياء كثيرة قال العلماء باستحالة وجودها .
الواقع أن الإيمان وحده هو الذى أمكنه أن يبرهن على
أخطائهم ، ومع ذلك فإنه لم يقتنع بالاكْتفاء بما وصل إليه .
لقد فكر فى الوقت ذاته فى ميسينى ، مقر أبجمنون .
ففى ملحمة هومر الثانية ، وهى ذلك المجلد الضخم من
الشعر الذى يسمى الأوديسة ، أطلق الشاعر على تلك المدينة اسم
« المدينة الذهبية » وعدّها أقوى مدن بلاد اليونان . وتذكّر
شليمان كيف تصف الملحمة عودة المحاربين اليونانيين
متنصرين من رحلتهم ، التى قرر الآلهة أن تستمر عشر
سنوات . وعندما وصل أبجمنون الملك إلى بيته ، وجد

أن زوجته وقعت في حب رجل آخر . وفي المأدبة التي أقيمت لتكريم المحاربين ، قتلت الملكة وعشيقتها ، الملك أجمعنون . ويصف هومر كيف دفنت جثث القتلى من المحاربين اليونانيين في ميسيني ، ولهذا صمم شليمان على أن يكشف عن مقابرهم حينذاك ، وأن ينقب عن كنوز ميسيني أيضاً .

كانت ميسيني قلعة كبيرة لاتزال أسوارها الضخمة واقفة كصدى خافت لأجداد الماضي . وكان الوصول في الماضي إلى ما وراء هذه الأسوار عن طريق بوابة حجرية ضخمة يعلوها تمثال أسد ، لا يزال يلوح في الأفق فوق خرائثها . وتقول الأساطير إن باني هذه الأسوار ، عملاق ضخم بعين واحدة يسمى سيكلوبس . أما أحجارها فكبيرة جداً ، حتى إن الرجل العادي لا يستطيع رفعها بمفرده .

حصل شليمان من الحكومة اليونانية على تصريح بالحفر والتنقيب عن مقابر ميسيني القديمة ، ولكن كان عليه أن ينقب داخل أسوار المدينة فقط ، أي حيث نقب

غيره من قبل . وسخر الأثريون كثيراً ، إذ جاء التصريح على هذا النحو ، وظنوه خدعة وقع فيها شليمان ، واعتقدوا أن ذلك الهاوى سوف يضيع وقته وماله إذا ما حفر في الموضع المقرر . وترجع سخرية الأثريين من شليمان إلى اعتقادهم أن المقابر تقع خارج أسوار المدينة .

ولكن شليمان يخالف العلماء في ذلك ، فقد قرر منذ سنوات أن المقابر لا يمكن أن تكون إلا داخل الأسوار . يؤيده في ذلك أنه قرأ لأحد الرحالة اليونانيين الأقدمين ، قصة يؤخذ منها أن المقابر كانت داخل الأسوار . ووضع شليمان ثقته في كاتب يوناني ، مثلما وضع ثقته من قبل في هومر ، ولم يحفل بعدد الأثريين الذين أخفقوا في البحث عن هذه المقابر ، فلسوف يُعثر هو وصوفيا عليها .

لهم بدأ شليمان وزوجته العمل في يولييه سنة ١٨٧٦ م تحت شمس الصيف الحارقة . واستمر الحفر شهوراً في أكماله من الملردم دون الوصول إلى نتيجة .

ميلة وفي أحد الأيام كانوا يعملون بجوار بوابة الأسد ، وكان ذلك في ديسمبر ، وفجأة انحنت صوفيا لتلتقط

شيئاً من التراب : إنه خاتم ذهبي . وفي الحال سرح زوجها العمال ، فقد عثرا على المقابر الملكية .

واستمرت صوفيا خمسة وعشرين يوماً راکعة في القاذورات ، وهي تنبش بالسكين الأشياء الدفينة ؛ وأخرجت إلى النور هيكلًا عظيمًا وراء آخر . وكان اللحم لا يزال عالقًا ببعضها ، ووجدت مع هذا بعض أشياء من الذهب : لقد وجدت تاجاً تتدلى منه ست وثلاثون ورقة من الذهب ، وكؤوساً وأزراراً وصولجانات وسيفاً : وكانت عظام النساء مغطاة بالجواهر والحلى الذهبية : وكان أروع ما فيها هو أقنعة الموتى التي صنعوها ، بحيث تشبه وجوه الأشخاص الذين يلبسونها . وقد وضعت الأقنعة والصداري الذهبية لتقي الميت شر الأرواح الخبيثة .

وبدت رومانتيكية شليمان في أجلى صورة ، حين استثاره أحد هذه الأقنعة ، واعتقد أنه يشبه إلى حد كبير القناع الذي كان يلبسه أبحمنون ، والذي تصوره به شليمان . وهناك في البرد وتحت وابل المطر ، أخذ هيريش يقبل « قناع أبحمنون » .

وبعد سنتين ، رزق شليان بطفل ، ولم يجد أمامه سوى اسم واحد يمكن أن يسميه به ، وذلك الاسم ؛ بطبيعة الحال ، هو أجمنون .

وقام جدل بين الأثريين حول كشف شليان في طروادة وميسيني . وكانت فرصة انتهزها الرجل ليعلم نفسه . لقد صمم على أن يدرس ويزيد معلوماته عن الآثار ليستطيع الرد على العلماء وإقناعهم . وحينما قرر أن يعاود التنقيب في طروادة عام ١٨٧٩ م ، طلب من مهندس معمارى يدعى ولهم دوريفلت أن يساعده على صلب الجدران والمباني المتداعية الواحد فوق الآخر .

وسرعان ما عرف الأثريون أن تل حصاراك يتكون من تسع طبقات بدلا من ست . وأن الطبقة الثانية كانت أقدم بكثير من طروادة التي وصفها هومر . وعلى ذلك فالكنز الذى عثر عليه شليان لم يكن كنز الملك بريام بحال من الأحوال . ولا بد أنه كان للملك آخر ، حكم قبل أن يختطف الأمير باريس الأميرة هيلين بألف سنة .

وقد وقع هذا القرار موقعاً سيئاً من نفس سليمان دون شك . لكنه كان الرجل الذى سرعان ما يعترف ويصحح أخطائه ؛ حتى لقد كتب يقول : « وددت لو أنى كنت أستطيع أن أبرهن أن هومر كان شاهد عيان لحرب طروادة ، ولكن يؤسفنى أنى عجزت عن ذلك » .

ولم يتمكن دوريفلت من إثبات موضع طروادة هومر الواردة فى الإلياذة إلا بعد وفاة سليمان بثلاث سنوات ؛ إذ أعلن فى عام ١٨٩٣ م أنها تأتى فى الطبقة السادسة من تل حصارلك ، وأن هومر الذى عاش فى القرن التاسع قبل الميلاد ، لا يمكن أن يكون قد شاهد طروادة التى كتب عنها . وأن قصصه الرائعة تناولت أحداثاً أخذت مكانها فى القرن الثانى عشر قبل الميلاد ، أى قبل مولد هومر نفسه بثلاثمائة سنة . وقد أخذ هومر الأغاني من أفواه المنشدين المتجولين ، الذين تناقلوها جيلاً بعد جيل . وصاغ هو ذلك كله فى ملحمة شعرية رائعة .

وكذلك ثبت أن مقابر ميسينى ، ترجع إلى فترة سابقة للفترة التى أرجعها إليها سليمان . والفتاع الذى ظنه

خطأ « قناع أجمنون الذهبي » كان يغطى وجه إحدى
الجثث الملكية التي ترجع إلى أربعمائة سنة قبل مقتل
أجمنون .

ثم جمدت الحياة من حول تل حصارلك بعد آخر
رحلة قام بها شليمان ؛ مدة تقرب من ستين عاماً .
وبقيت خرابته وأسواره ومنازله المتداعية ، مكشوفة
لأشعة الشمس الذهبية الدافئة . وفي عام ١٩٣٢ ، قررت
جامعة سنسنتاني أن تقوم بحفريات هناك هي الأخرى ،
محاولة تأريخ الطبقات المختلفة . وكان أمل القائمين بهذه
الحفريات أن يعلموا المزيد عن الناس الذين عاشوا هناك
منذ قرون كثيرة جداً .

استمر العمل سبعة فصول تحت إشراف كارل بليجن ،
وكان علم الآثار ودراساته قد تقدم كثيراً عما كان عليه
أيام شليمان . والنتائج التي حصلت عليها هذه البعثة
الأخيرة ، درستها فئات متباينة التخصص من الأثريين .
فكان هناك المختصون في علم النميات (النقود القديمة)
وفي الخزف ، وفي الهياكل العظمية الآدمية ، وفي حياة

النبات والحيوان ، وفي التربة والصخور ؛ هذا إلى جانب .
 الاستعانة بالمصورين والمهندسين . وبذلت الجهود الممكنة
 للحصول على أكبر قدر من المعلومات عن هذا المكان .
 القديم . وظهر لهذا الفريق من المنقبين أن شليمان قد
 خرب بعض المخلفات أثناء جهوده التي قام بها من أجل
 كشف قلعة بريام . ويرجع هذا إلى أنه لم تكن توجد
 في أيام شليمان - وكذا الحال مع تيلور في أور - قواعد
 علمية للتنقيب عن الآثار .

ولم يستطع بليجن وزملاؤه من العلماء ، أن يورخوا
 الطبقات المختلفة بالضبط . ولكنهم وجدوا أن الإنسان
 عاش في حصارك منذ حوالى ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة ،
 ويمكن أن نقول إن الطبقة السفلى ترجع في تاريخها
 إلى عام ٣٠٠٠ ق . م ، وإنها كانت حصنا ملكيا يحمي
 سور . ومعظم أدوات ذلك العصر من الحجر أو العظم ،
 والقليل منها فقط كان مصنوعاً من النحاس الأحمر ، وأن
 طروادة رقم ١ قد خربتها النيران .

أما طروادة رقم ٢ فكانت عبارة عن الطبقة المحترقة التي عثر فيها شليمان على كنوز بربام ، وقد صان معظم هذه الطبقة ، أنها غطيت بطبقة أخرى من الرماد ؛ وذلك مثلما حفظت النيران الألواح الطينية التي كانت في قصر الملك في كنوسة بجزيرة كريت .

وعاش سكان طروادة رقم ٣ في مدينة ، شوارعها ضيقة ، مبنية فوق خرائب المدينة المحترقة ، أما نساؤها فكان ربات بيوت مهملات ؛ إذ أنهن تركن أرضية منازلهن مملوءة بالعظام والفضلات والقواقع وبقايا الفخار المكسور ، فإذا ما أصبحت أرضية المنازل غير منتظمة ، اضطر أزواجهن إلى وضع طبقة أخرى نظيفة من الطمي فوق الفضلات .

ولما تكرر هذا العمل مرات عديدة ، ارتفع مستوى الأرضية كثيراً بالنسبة للسقف . وحتى لا ترتطم رموس الناس بالأسقف ، صار لزاماً عليهم أن يرفعوا السقف

كله : ولاحظ الأثريون وجود هذه العملية في معظم المنازل .

أما زوجات سكان الطبقة الرابعة أو طروادة رقم ٤ ، فلا بد أنهن كن أول من أجاد فن خبز العيش ؛ فقد كانت مطابجهن تحتوى على أفران ذات قباب ، لم يرها الأثريون في الطبقات الأخرى .

أما مدينة الطبقة الخامسة ، فكانت أكبر من مدن الطبقات الأربع الأولى تماما من الفضلات ،

البرونز . وقد خربت طروادة رقم ٥ بأيدي أعدائها ، ويحتمل أنهم هاجموا من على ظهور الخيل .

أما الطبقة التالية ، فهي الطبقة التي أطلق عليها دوريفلت اسم : « طروادة هومر » . وكان سمك أسوار القلعة ست عشرة قدما ، الأمر الذى يتفق وما ورد في الإلياذة : ويحتمل أن كان سكانها هم القادمين

الجدد على ظهور الخيل ، الذين خربوا طروادة الخامسة .

ثم ويعتقد بليجن أن طروادة السادسة لم تحرق كما ظن دوريفلت ، بل إن زلزالا خرب الحصن بعد ١٣٠٠ ق.م بقليل ، ثم بنيت طروادة السابعة فوق أطلال سابقتها .

وبعد ذلك بقرن من الزمان ، أى حوالى عام ١٢٠٠ ق.م ، خربت النار طروادة السابعة ، وارتضى بعض العلماء هذا التاريخ ليكون تاريخاً لسقوط طروادة ، ومن أجل هذا اعتقد بليجن أن الطبقة السابعة هى حقيقة طروادة الهومرية . ولكن بما أنه من المتعذر أن نحدد على وجه الدقة تاريخ طبقة ما ؛ فمن المتعذر تبعاً ، أن نحدد أى الرجلين على صواب : دوريفلت أم بليجن .

وكان سكان الطبقة الثامنة هم أول من استخدم الأدوات المصنوعة من الحديد ، وبهم أيضاً ينتهى

عصر البرونز في الحضارة اليونانية . ثم تأق الطبقة الأخيرة أو العليا ، وهذه ترجع إلى العصر الرومانى .

ومنذ عام ١٩٣٨ ، والصمت ينجم على تل حصارلك ، حين كفت معاول الأثرين عن البحث فى أعماقه ، وإن كانت قد تمت عدة كشوف أخرى فى بعض الأماكن القديمة الأخرى .

والآن . . . فإن الفضل كل الفضل يرجع إلى هذا الهاوى الخيالى النزعة ، فى إتاحة الفرصة للكشف عن أسرار تل حصارلك . ولو أن شليمان نظر كالعلماء الآخرين إلى قصر هومر على أنها مجرد أساطير ، لما أنفق ذلك الوقت الطويل ، ولما بذل الجهد والمال فى البحث عن قلعة بريام ، ولما عرضت كنوز طروادة وميسينى الذهبية الرائعة فى خزائن المتاحف ، ليراها العالم كله ، ولبقيت للآن مخفية تحت أنقاض القرون الحالية .

والواقع أنه ليس من المهم أبداً أن يعتقد شليمان — خطأ — أن الطبقة الثانية هى طروادة الهومرية ، أو

أننا نحن لا نستطيع أن نؤكد أنها الطبقة السادسة ، أو السابعة ؛ إذ المهم هو أن الصبي هيريش شليمان أحب قصص هومر ، وأن إيمانه بها لم يتزعزع حين كبرت سنّه ، وبلغ مبلغ الرجال .

إن شكوك العلماء لم يكن لها أى أثر ، أما إيمان شليمان ، فإنه هو الذى أشعل السراج الذى بدد الظلام المحيط بعصر البطولات اليونانية .

الفصل الثامن

المعول ما يزال يضرب الأرض

تنهى صفحات هذا الكتاب ، ولا تنتهى مغامرات
علماء الآثار . إذ أننا لم نتناول هنا سوى القليل من
أخبار كشفهم العجيبة .

فى الدنمارك . . . كشف الأثريون عن جسم احد
المحاربين من عصر البرونز ، وكان يرقد فى تابوت
مصنوع من جذع شجرة مفرغة ، وحفظ هذا المرقد
المسمى جسم المحارب ، كما حفظ ملابسه المصنوعة من
الصوف والجلد .

وفى النرويج كشفوا عن مدفن لإحدى ملكات
الفايكنج ، مدفونة إلى جانب سفينتها الضخمة .

وفى أذغال سيلان . . . وجدوا معابد غريبة .
ووجدوا فى آشور . . . ثيراناً ضخمة ذات أجنحة
ورعوش آدمية . وفى فرنسا . . . اكتشفوا رسوماً

جميلة في مغارة ترجع إلى عصر ما قبل التاريخ ، أى منذ ١٦٠٠٠ سنة .

وفي مغارة قريبة من البحر الميت ... كشف الأثريون حديثاً لفائف من الجلد وبقايا من النحاس الأحمر . ونقشت على هذه اللفائف كتابات باللغة العبرية القديمة . ويحاول العلماء صيانة وترجمة هذا الأثر الذى يعتبر أقدم نص ظهر من « العهد القديم » .

وتستمر قائمة الكشف فى الازدياد ، لأن علماء الآثار يعملون فى مختلف أنحاء العالم ، ليشيدوا جسراً يصل الماضي بالحاضر .

ولا يخفى أن الاختراعات الحديثة تسهل عمل الأثريين أكثر من ذى قبل . وما الصور التى تؤخذ من الجو ، إلاّ أحد الأمثلة على ذلك . والجدير بالنظر أن أشياء كثيرة تظهر فى الصور المأخوذة من الجو ، على حين لا نستطيع أن نلاحظها ، ونحن على الأرض .

وتكون الأثرية الموجودة فوق المقبرة أغنى عادة من



(شكل ٢٥) أبو الهول . . . أبو الأسرار

الأثرية المحيطة بها ، ولهذا يكون لون الحشائش فوقها أكثر اخضراراً منه حولها . وقد يكون الاختلاف طفيفاً جداً لدرجة أن عيوننا لا تستطيع إدراكه ، ولكن في الصورة المأخوذة من الجو تكون الحشائش الأكثر اخضراراً ، أكثر ظلاً . ويستطيع عالم الآثار أن يستفيد من هذا الدليل ، فيقرر أين يبدأ الحفر بحثاً وراء مقبرة قديمة ، بدل أن يضيع الوقت في البحث عنها في المكان كله .

واليوم ، نرى علماء الآثار وقد سلوا كثيراً من الثغرات في المنظور العام لصورة الماضي . وأصبحت جميع المعارف التي ظهرت في جهات متعددة من العالم ؛ كلها في متناول الباحث الحديث . إنه يستطيع بسهولة أن يتبادل الصور والمعلومات ، ويناقش المقاييس مع العلماء الآخرين ، حتى لو كانوا في نصف الكرة الآخر ؛ وبمقارنة النتائج التي وصل إليها ، بالنتائج التي وصل إليها غيره من العلماء في الماضي والحاضر ، فإنه يستطيع أن يضيف إلى معلوماته الكثير من المعارف .

ويوجد الآن فرع جديد من علم الآثار لا يزال في مرحلة الطفولة . وهذا هو علم آثار ما تحت البحر .

فالمعدات الحربية الحديثة للغطس أتاحت لنا أن نكشف قاع المحيط ، على حين لم نكن نستطيع أن نفعل ذلك من قبل . والمعروف أنه توجد تحت الأمواج زوارق رومانية ، وسفن غارقة منذ أكثر من ٢٠٠٠ سنة . ولسوف تعطى حمولتها ، معلومات كثيرة للمؤرخين عن النقل البحرى والتجارة فى العالم القديم .

وعلم آثار ما تحت الماء يجرى كثيراً على الألسنة اليوم ، وهو الآن فى المرتبة التى كان عليها علم الآثار فوق الأرض منذ قرن من الزمان . وربما يستطيع الغواصون فى أعماق البحار أن يرفعوا — بعد ألف عام من الآن — حطام إحدى البواخر المحيطية ، ليعرفوا شيئاً عن عالمنا فى القرن العشرين .

ولعل أهم تطور فى علم الآثار اليوم هو الطريقة الحديثة فى التأريخ ، التى ابتكرها الدكتور ويلارد . ف . لى الأستاذ بجامعة شيكاغو . وتسمى طريقة الكربون ١٤ للتأريخ ، وإليك مجملها :

يعرف الدكتور لبي أن كل الأحياء الحيوانية والنباتية تحتوى على نوع معين من الكربون ، يسمى كربون ١٤ ، وهذا الكربون ذو نشاط إشعاعى . وطالما كان النبات أو الحيوان على قيد الحياة ، فإنه يكتسب كربون ١٤ هذا . وبمجرد أن يموت يبدأ يفقد كربون ١٤ ، ولكن ببطء شديد .

وبعد مضى ٥٥٦٨ سنة ، يكون النبات أو الحيوان قد فقد نصف الكمية التى امتصها من هذا الكربون ، قبل أن يذوى أو يموت ، ثم يفقد النصف الباقى بعد مضى ٥٥٦٨ سنة أخرى . وتستمر هذه العملية بطريقة غير ملحوظة .

ويمكن قياس كمية الكربون ١٤ الباقية بواسطة جهاز يسمى عداد جايجر . وتدل عدد الفرقعات التى تصدر من الجهاز على كمية الكربون ١٤ التى لا يزال يحتفظ بها النبات أو الحيوان .

وعلى سبيل المثال ، إننا لو فرضنا أن جذع شجرة

قديمة يحدث عدداً من الفرقعات ، يساوى نصف العدد الذي يحدثه جذع شجرة مقطوعة حديثاً ، فمعنى هذا أن الشجرة القديمة عمرها ٥٥٦٨ سنة ، لأن هذه هي المدة التي تقضيها بعد وفاتها ، لتفقد نصف الكمية التي تحتويها من الكربون ١٤ .

وللتأكد من صحة هذه الطريقة ، أرسل علماء الآثار إلى الدكتور إيبى فى أول الأمر عينات من الأشياء التي يعرفون تاريخها ، ليروا أكانت نتائج عداد جايجر تتفق مع الحقائق المعروفة أم لا .

وكان أول هذه العينات التي أرسلت ، قطعة خشب مأخوذة من مقبرة مصرية ، فبرهنت الطريقة على صحتها ، مع احتمال حدوث خطأ ، تقدر نسبته بحوالى ١٠ ٪ . ثم أرسلوا أشياء غير معروفة التاريخ ، فأرسلوا قطعة من نبات كان مشتعلًا فى موقد قديم بمغارة فى فرنسا ، وأظهر جهاز جايجر أن النار كانت مشتعلة فى النبات منذ حوالى ١٥٥١٣ سنة . كما أظهر الجهاز أن أصدافاً عثر عليها بإحدى مدن العراق ، يقدر عمرها بحوالى ٦٧٠٧ سنين ..

ومنذ ذلك الوقت ، أمكن تأريخ أشياء كثيرة أخرى بهذه الطريقة ، مثل اللفائف التي عُثر عليها قرب البحر الميت .

وكان الدكتور لبي في البداية هو الوحيد الذي يستطيع اختبار آلاف العينات المرسلة إليه من جميع أنحاء العالم . أما الآن فتوجد أماكن كثيرة أخرى بالولايات المتحدة وأوروبا ، يمكنها القيام بهذا العمل الهام . ويستطيع الأثريون اليوم أن يحددوا التاريخ التقريبي لأي شيء كان حياً يوماً ما .

وكلمنا تعلمنا شيئاً عن أجدادنا القدماء ، ازداد شعورنا بالفخر والتواضع معا . ويأتي شعورنا بالفخر لأن هؤلاء الذين اعتمد عالمنا الحديث على ابتكاراتهم الأولى اعتماداً كبيراً — هم حقا أقرباؤنا الأقدمون . أما شعورنا بالتواضع ، فلأنما ينبع من تفكيرنا فيما ابتكرته أيديهم ، قبل أن نولد نحن بقرون عديدة .

ويجب أن نتذكر أن البشرية لم تسلك طريقاً واحدة مستقيمة أثناء سيرها ، وإنما كانت ثمة ارتفاعات

وانخفاضات كبيرة خلال التاريخ . ومع هذا « فالحديث »
ليس أفضل من « القديم » دائماً .

فلقد بنى المينيون في كريت قوة بحرية عظيمة ،
وأبحروا بشجاعة بين شعوب العالم القديم . وحينما زالت
دولتهم ، فإن أحدا لم يسيطر على البحر ، حتى مجيء
الفينيقيين بعدهم بعدة قرون .

وبعد حضارتي طروادة وميسيني العظيمتين ، وما
خلفته من كنوز ذهبية ، فإن شعوب اليونان سارت
في طريق متخلفة لمدة آلاف السنين . ولم تعد لمبانيهم
وأشعارهم عظمتها وروعها إلا في العصر الذهبي لبلاد
اليونان نفسها .

وفي أمريكا الجنوبية كان فن وهندسة شعب الأحجار
الكبيرة ، أجمل بكثير من فن الأنكا الذين جاءوا بعدهم ،
وهكذا الأمثلة .

وقد حدثت فترات التخلف هذه خلال العصور
مرات ومرات ، فبرق الإنسان سلم المجد إلى قته

ليهبط من جديد إلى أسفله . وبعد مدة من الزمن يعاود الصعود ثانية إلى قمة أخرى ، وهكذا .

ومن كل هذا الماضي الطويل ، يتكون أساس عالمنا الحديث . ولا نستطيع أن نفعل أنفسنا عن هؤلاء القدماء ، الذين ندين لهم بالشئ الكثير . وإن ما نحن عليه اليوم ما هو إلا بعض مما حققه جميع الناس الذين عاشوا قبلنا . وهؤلاء الأجداد يكونون جزءاً من كيانتنا اليوم ، وجزءاً مما سنكون عليه في المستقبل . والحقيقة أننا لا نستطيع أن نعرف أنفسنا ، دون أن نعرفهم أيضاً .

إن علماء الآثار يكشفون بمعاولهم عن تراث الماضي . وهم حين يحفرون ، يعلون في الحقيقة بناء المعرفة في حاضرنا ، وينسرون الطريق أمام مستقبلنا .

هذا الكتاب

تأخذنا السيدة استيفيه فريدمان - على صفحات هذا الكتاب - في رحلة ممتعة ، عبر القرون لمساهمة الأناث الخالدة في المواطن الأولى الحضارات البشرية .

إننا نعيش معها أحداث مع تراث الجماعات الأولى التي سكنت بلاد المكسيك . ثم انتقل إلى وادي النيل ، فتلطف بنا في جولة منيرة لرؤية كنوز مقبرة توت عنخ آمون في وادي الملوك . ثم تعبر معنا البحر إلى كرييت حيث نعيش فترة في فسر الملك منوس ونسمع هناك طرفاً من غرائب ابنه مع ابن أعداء الملك . ثم تغادر بنا كرييت إلى مهد إبراهيم الخليل حيث مدينة اور وحضارة آشور . ونسمع منها هناك تفصيلاً عما لعبت لقصة الطوفان . ثم تغادر بنا أرض الدلفان إلى أعالي الغرب حيث أفليم . ثم نأخذ أثار الإنكا في جولة من أعالي وعود بنا ثانية إلى أجواء الشرق نعيش مع أساطير اليونان وأشعار هوميرو وإبطال طروادة وميسي . أما شاطئ المطاف فرحلة طريفة إلى أعالي البحار .

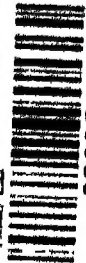
لقد صورت المؤلفة كل ذلك بأسلوب شائق يدمج إلى قراءة الكتاب مرات ومرات .



سنة ١٩٦٠

الثن ٢٠ قرشا

Bibliotheca Alexandrina



0208531